رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فواصل الآيات القرآنية

دراسة بلاغية دلالية

الكتاب الفائز بالجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية القاهرى

فى مسابقة الشعراوى القرآنية لعام (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)

دكتور

السيد خضر

أستاذ اللغويات المساعد

جامعة المنصورة

مكتبة الآداب

أسسها على حسن عام ١٩٢٣م

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة (١١١١١)

تليفون وفاكس ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

فواصل الآيات القرآنية
دراسة بلاغية دلالية

***

الكتاب الفائز بالجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية القاهري
في مسابقة الشعراوي القرآنية لعام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

***

دكتور
السيد خضر
أستاذ اللغويات المساعد
جامعة المنصورة

Editions Al-Adab
42 Opera Square - Cairo (11111)
Tel & fax: (202) 23900868
E-mail:adabook@hotmail.com

مكتبة الآداب
أسسها علي حسن عام ١٩٢٣م
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة (١١١١١)
تليفون وفاكس: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢)

(حقوق الطبع والنشر محفوظة)

***

الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م
الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

***

البريد الإلكتروني للكاتب :
skh92003@yahoo.com – أو skh92003@hotmail.com
الموقع الشخصي على النت : sayedkhedr. net
المدونة الشخصية للكاتب (نصوصٌ للحياة)
texts-for-life.blogspot.com

***

رقم الإيداع : ٢٣٣٨٣ لسنة ٢٠٠٩ م .
الترقيم الدولي : 3- 8049 - 17 - 977
الناشر : مكتبة الآداب – ٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب " الفواصل القرآنية " الذي نُشر منذ عشر سنوات تقريباً وقد عدّلت في مواضع قليلة منه وزدت فقرات .. وضبطتُ أكثر الآيات بالشكل .. وغيرت عنوانه ليكون أكثر ملاءمة للمضمون .

وكنت قد نشرت ملخصاً له في مجلة " منار الإسلام " الإماراتية ثم سافرت للعمل في الرياض فطلب مني الزملاء في قسم اللغة العربية في كلية المعلمين بجامعة الملك سعود تقديم ورقة بحثية في إحدى الأمسيات فقدمت ذلك الملخص ثم أعطيته الزميل الدكتور دخيل العواد فوضعه على موقع الكلية المنشأ حديثاً آنذاك فنُسخ مراراً ووُضع في مواقع عديدة ثم واصل انتشاره عبر مواقع النت ثم دخل في عداد المكتبة الشاملة في الإصدار الثالث .. والحمد لله رب العالمين.

وها أنا أعود فأذكر أن ظاهرة الإيقاع اللفظي في القرآن الكريم لم تلق نصيباً كبيراً من الدراسة كأخواتها من الظواهر اللغوية الأخرى في القرآن ، ربما لتحرُّج بعض الدارسين من المسألة أو الخوف من اقترانها بالسجع المذموم في بعض أحواله .. وأيّاً ما كان الأمر فذلك هو الواقع ، ولعله كان من أسباب في اختيار المجمع هذا الموضوعَ للمسابقة التي فاز فيها كتابي بالجائزة الأولى بفضل الله وحمده ، ولعل هذا الكتاب على إيجازه يسد جانباً من النقص في هذا المجال ، والله الموفق .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وبعد :

فلقد نزل القرآن الكريم ذو البيان الرفيع والبلاغة العليا بلسان عربي مبين وتركيب جمالي بديع ، فكان أن دانت له من العرب أربابِ الفصاحة والبيان، قلوبٌ وأسماعٌ ، وعقولٌ وأفئدةٌ كانت أشدَّ من الصخر قسوةً ، وأكثر من الأنعام ضلالاً وغفلةً ، فإذا هي بالقرآن أرق قلوباً وألين أفئدةً وأرسخ عقولاً ، ذلك لما وجدوا فيه من جمال البيان ورفعة التشريع وفلاح الدنيا والآخرة .

لقد كان الشعر فن العرب والعربية الأول ، وكان للأسجاع تُلقى من أفواه الخطباء أو الكهان فعلُ السحر في القوم،كانت العرب أمة متكلمة ، وكانت قريش إذا فرغت من مآرب التجارة والسعي في الأرض تحلّقت حول الكعبة تتكلم وتتكلم ،كان الكلام فنَهم الأول والأكبر ، وكان البيان من بين كل ألوان الكلام شاغلَهم الأعظم ، وعلى من يريد أن يطاولهم ويساجلَهم ويعلوَ عليهم أن يعلوَ على فنهم وبيانهم ، فمن ذا يكون ؟

ثم جاء القرآن والحال كذلك ، وما هي إلا معارضة ضالة خاسرة لم تدم إلا قليلاً - شأن الناس مع كل جديد - حتى ملك القرآن منهم الأسماع والعقول ببيان عال رفيع ، ودانت له الرقاب والأبدان مخبتةً مطمئنةً ، ومضى الزمان وانشغلت أمة الإسلام بكتابها تتلوه وتتدارسه ، ويؤلِّفُ في إعجازه وتفسيره علماؤها ، وارتبطت الأمة بالقرآن أشدَّ ما ارتبطت أمةٌ بكتاب وأعظمَه ، وسال مداد العلماء على مدار عمر الأمة يسطر أوراقاً وكتباً لا تنتهي ...في كل فن ولون والمصدر الأول والأعظم لذلك كله هو ذلكم الكتاب الخالد .

وكانت إحدى مشاغل الكتاب فيه تذوقَ أسرار بيانه،والبحثَ العميق في لغته الصافية الخالدة ، لقد استعمل القرآن لغة القوم التي اعتزوا بها أيّما اعتزاز، وافتخروا ببيانها على غيرهم من الأمم ، حتى صار كل من لا يعرف لغتهم أعجمياً ولو كان بشراً ناطقاً سوياً !

استعمل القرآن لغة القوم لكن بأسلوب جميل متفرّد في كل صوره ومظاهره ، فجاء بكلام معجز لا قبل لبشر بأن يجيء بمثله لفظاً أو معنى ...

وصور الإعجاز في لغة القرآن كثيرة متنوعة ، منها اختياره للألفاظ بدقة عجيبة،حتى لا تجد لفظاً يمكن استبداله بآخر دون تغير المعنى ومنها دقة التركيب والنظم، ومنها الإيقاع الجميل في تراكيبه وجرس ألفاظه ،ومنها كذلك توزيع الحروف على مساحات الكلام بين مجهور ومهموس ومفخم ومرقق وشفوي وحلقي وأسناني...إلخ، بحيث لا تجد كلمة صعبة النطق ولا قلقة في موضعها .

على أن واحداً من صور الإعجاز تلك يتمثل في فواصل آياته، والفاصلة فيه لون مميز من ألوان السجع في هذه اللغة ، وسنذكر في مثاني دراستنا هذه خلاف العلماء في استعمال مصطلحي السجع والفاصلة ، وهو خلاف شكلي لا يغير من جوهر الحقيقة شيئاً .

والفاصلة القرآنية قد تكون كلمة من بنية آية قصيرة ، وقد تكون كلمة من بنية جملة تأتي في نهاية الآية معقّبة أو مقرّرة أو مؤكدة ...إلخ ، وهي في كل الحالات تنتهي بصوت قد يتكرر محدثاً إيقاعاً في صورة السجع وقد لا يتكرر، ولكنها دائماً تحتفظ بإحدى صور التوافق الصوتي مع الفواصل السابقة واللاحقة لإحداث الإيقاع ،

كأن تكون الكلمتان على زنة واحدة أو من فصيلة صرفيـة واحـدة أو غير ذلك مما سنفصّله .

وعلم البلاغة يهتم بدراسة الإيقـاع بمظـاهره المتعـددة ، عـلى أن الإيقاع الذي هو قمة النغم اللفظي يكون ظـاهراً أكثـر مـا يكـون في الفواصل،وهو في الوقت نفسه نتاج عوامل عديدة تؤثر في تكوينـه ، فالفاصلة صيغة صرفية تنتهي بـصوت ، وهـذه الـصيغة ذات موقـع إعرابي وذات دلالة ترتبط بمضمون الآيـة ، ومـن ثـم فـإن التحليـل النهائي للفاصلة سيمرّ لا ريب بدراسة الـصوت والـصرف والنحـو والدلالة معاً .

ودراستنا هذه سوف تتدرج من العام إلى الخاص في كل فـصولها، ففي التمهيد سنبين بإيجاز شديد معالم الدراسة البلاغية والدلالية التي سنؤسس عليها درسنا للفواصل.

وفي الفصل الأول درست " الظواهر الإيقاعية في نهايـات الجمـل العربية " والهدف مـن ذلـك دراسـة الفاصـلة وسـط أخواتهـا مـن الظواهر المشابهة في العربية ، حيث إن القـرآن نـازل بلـسان العـرب وعلى مذاهبهم وطرائقهم في استعمال اللغة ، ومنها السجع .

وفي الفصل الثاني درست الفواصل القرآنية مـن منظـور مباحـث البلاغة العربية المتنوعة ، فبدأت بدراسة الفواصـل دراسـة صـوتية ، وانتهيـت بمباحـث الدلالـة وآخرهـا بحـث فريـد في بابـه بعنـوان "الفاصلة وتصوير اللوحة القرآنية " .

وفي الفـصل الثالـث اخـترت سـورتي البقـرة والإسراء لدراسـة فواصلهما دراسة تطبيقية من منظور بلاغي ، محـاولاً الاسـتفادة مـن نتائج الدراسة في الفـصلين الـسابقين في دراسـة فواصـل الـسورتين

الكريمتين ، وانتهيت بالخاتمة وأهم نتائج الدراسة ، مع ذكر المصادر والمراجع .

وسوف يلاحظ القارئ الكريم أنني - تمشياً مع حاجة البحث وطبيعته - تدرجت في اقتباس النصوص المفيدة في هذه الدراسة من أعمال العلماء، فكان الاقتباس في الفصل الأول أكثر منه في الثاني وقل الاقتباس أو ندر في الفصل الثالث ، ذلك أننا نؤمن بأن الثقافة الإسلامية إرث مشترك بين أبناء هذه الأمة ، ولا يحق لأحد أن يهمل تراث السابقين ، ولا يحق لأحد أن يأخذ من علمهم دون ذكرهم وإرجاع الفضل لأهله .

تلكم بعض صفات هذه الأمة المتراحمة ، يترك الأولون للآخرين علماً نافعاً فتزداد بذلك حسناتهم عند الله ، وينتفع الآخرون بذلك ويدعون الله تعالى﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾(الحشر : ١٠) .

هذا ، وقد كان بإمكاننا التوسّع في بعض مباحث الكتاب ، لولا أن مجمع اللغة العربية كان قد حدد البحث سلفاً فيما لا يزيد على مائتي صفحة ، وقد آثرنا إخراج الكتاب كما هو ، ولعلنا نعود إلى ذلك فيما نستقبل إن شاء الله .

وإني ها هنا لأتقدم بالشكر الخالص لأستاذنا العلاّمة اللغوي الأستاذ الدكتور عبده الراجحي الذي ناقشت معه خطة البحث ، وكان لتوجيهاته أثر كبير في توجه مسار البحث .

وأشكر كذلك كلاً من أ.د محمد حماسة عبد اللطيف ، وأ.د محمد شفيع السيد ، وأ.د أمين السيد ، وأ.د محمد عبد المجيد الطويل ، وأ.د

فتحي جمعة ، الأساتذة بدار العلوم ، لما أولَوْني من رعاية ومودة صادقة .

وهذا شكر خاص أزجيه خالصاً لامرأتي الفاضلة التي شاركتني عناء هذا البحث ، وكتبته ونسّقته على الحاسوب ليخرجَ بالصورة التي هو عليها الآن وشاركتني مع أولادنا وأحبتنا سعادة الفوز بهذه الجائزة الكريمة .

ثم شكرٌ آخر الأمر للقراء الكرام الذين استقبلوا الكتاب مرحبين به محسني الظن به وبصاحبه ، فقد راسلني بعضهم واتصل بي آخرون بل سعى بعضهم مشكوراً – مجزياً خيراً إن شاء الله على سعيه – لزيارتي في البيت أو العمل .. وهذا من فضل الله تعالى ، وأنا أتمنى التواصل مع القراء الكرام كذلك حول هذا الكتاب وغيره من كتبي بالمراسلة الميّسرة اليوم عبر البريد الإلكتروني المثبت بظهر الغلاف الداخلي .

اللهمَّ هذا جَهْدُ المقلِّ في جنب فيضك الكبير ، وعملُ المقصِّر في حق كتابك الكريم ، أقدمت عليه جادّاً مخلصاً مؤمِّلاً ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

***

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تمهيد

في معالم الدراسة البلاغية والدلالية

نشأ البحث اللغوي عند العرب خدمة للنص القرآني المقدس ، واستعان اللغويون بالتراث العربي شعره ونثره في فهم النص القرآني لأن القرآن نزل بلغة العرب وعلى عاداتهم وطرائقهم في استعمال اللغة ، ولا أدلّ على ذلك من صنيع ابن عباس الذي كان يفسّر القرآن بالشعر ، ويرى أن الشعر ديوان العرب والعربية الأكبر.

ثم إن البحث البلاغي ما لبث أن نما في كنف البحث اللغوي مسائل متفرقة هنا وهنالك يعرّج عليها اللغوي حين يبحث مسألة في النحو أو الدلالة ، فتحدثوا عن مناسبة المقال للمقام وطرق أداء المعنى ، والمجاز والاستعارة والتشبيه ... ومن ثم نمت وتحددت معالم مباحث البلاغة فيما بعد حتى صارت علماً ذا قواعد وأصول محددة .

وقد انتعشت دراسة البلاغة زماناً حين مالت إلى البحث الجمالي في وجوه إعجاز القرآن الكريم لفظه ودلالته ، فكان أن قدّم عبد القاهر نظريته البلاغية - نظرية النظم - وطبقها عملياً من بعده العلاّمة الزمخشري في تفسيره الكشاف ... هنالك أضاءت شموع البلاغة متعانقة مع البحث اللغوي الجمالي فقدمت أجمل ثمار البحث البلاغي واللغوي في العربية .

ثم إن مباحث اللغة والبلاغة - وهما صورة حية للمجتمع - مالت إلى الجمود والشكلية من بعد ، وكاد الذوق الفني يختنق في مباحث المتأخرين كالسكاكي والتفتازاني وغيرهما من أصحاب القوالب الشكلية الجامدة المحكمة .

ولقد أحس دارسو اللغة والبلاغة معاً منذ نشأتها بتداخل الدراستين: اللغوية والبلاغية ، وصارت علوم الأصوات والصرف والنحو والدلالة مباحث أساسية من منظور خاص في البلاغة العربية، وحسبنا أن نشير في عجالة إلى نفر من أولئك الدارسين لإثبات ما نقول .

لقد كانت أكثر مباحث عبد القاهر في دلائل الإعجاز - وهو من أهم كتب البلاغة العربية - كانت ذات صبغة نحوية جمالية ، واعتمد في تحليله البلاغي للنصوص العربية اعتماداً واسعاً على ميراث النحو العربي لكن من الوجهة الجمالية إن صح التعبير .

وفي تحليل عبد القاهر لقوله تعالى﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(هود:٤٤) يرى أن نظم الآية ترجع مزيته وفضيلته إلى ارتباط الكلم بعضها ببعض وفق مبادئ النحو... قال : " ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أُمرت ، ثم في أن كان النداء بيا دون أي ، نحو " يا أيتها الأرض " ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعي الماء ، ثم في أن أتبع نداءَ الأرض وأمْرَها بما هو من شأنها نداءَ السماء وأمرَها كذلك بما يخصها، ثم أن قيل : وغيض الماء ، فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يَغِضْ إلا بأمر آمر وقدره قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى "وقضي الأمر " ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو"واستوت على الجوديّ" ثم إضمار السفينة قبل الذكركما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل في الخاتمة بقيل في الفاتحة.."(١)

وقد نقلت كلامه - على طوله - لنرى أن مدار النظم عنده - وهو صلب البلاغة - إنما هو على الخبرة بتراكيب الكلام من تقديم

وتأخير ومعرفة وتنكير ...إلخ ، وهي مباحث أساسية كذلك في النحو العربي .

والخطيب القزويني يجعل بعض مباحث النحو مداراً للبلاغة ، يقول :" وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف ، فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ... "(٢).

فالبلاغة تستفيد من مباحث النحو من منظور خاص هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال أو بمعنى آخر تهتم البلاغة بالجانب التطبيقي من جوانب اللغة ولذا فإن كثيراً من مباحث اللغة والنحو بعيدة عن مجال البلاغة ، كدراسة اللهجات أو نشأة اللغات وتاريخها أو البحوث النحوية النظرية الجدلية..إلخ.

وأشار محمد بن علي الجرجاني صاحب " الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة" في بداية حديثه عن البلاغة إلى حصر صور التراكيب العربية وإلى موضوعات العلوم العربية التي هي مفردات موضوعها علم الصرف ، وتراكيب يتوجب معرفة صحتها ...وهو موضوع علم النحو ، وكيفية تطبيق أحوال التراكيب العارضة على أحوال المعاني وهو موضوع علم المعاني ،وباعتبار كون دلالتها على المعنى المراد وهو موضوع علم البيان ، وباعتبار نسبة بعضها إلى بعض لفظاً أو معنى بالتحسين والتقبيح وهو موضوع علم البديع ...(٣).

وقد أحس المحدثون من دارسي البلاغة بما أحس به الأقدمون ، ونذكر على سبيل المثال منهم الدكتور مصطفى الصاوي الجويني ، فبعد أن ذكر أن نشأة البلاغة كانت في أحضان البحث اللغوي ابتداء من أعمال الخليل وسيبويه ، ثم نضوجها في حجر الكلاميين

والأصوليين... قال :" وإذن فالبلاغة نلتمسُها في مجالات اللغة والنحو والصرف والتفسير والكلام والأدب "[4] .

وقد دفعت الصلة الوثيقة بين علمي النحو والمعاني دارساً لغوياً معاصراً إلى القول بأن " النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمى علم المعاني ، حتى إنه ليحسن أن يكون علم المعاني قمة الدراسة النحوية أو فلسفتها إن صح هذا التعبير "[5] .

ونظرة سريعة إلى مباحث علم المعاني ترينا كيف أن مباحثه أساسها النحو فهو يبحث في " أحوال الإسناد الخبري وأحوال المسند إليه وأحوال المسند ، وأحوال متعلقات الفعل، والقصر والإنشاء والفصل والوصل،والإيجاز والإطناب والمساواة "[6].

أما علم البيان فمباحثه : التشبيه والحقيقة والمجاز بأنواعه والاستعارة والكناية... وهذه المباحث أكثر التصاقاً بعلوم الدلالة والمعجم ، ومباحث البديع ذات علاقة بتحسين الكلام وتزيينه ، أي أنها ترتبط عادة بالكلام ذي البلاغة العالية الذي يعدّ إعداداً ويُختار على بصيرة وروية اختياراً .

ورغم ما جدّ من دراسات أسلوبية معاصرة تتجاوز المفاهيم البلاغية التقليدية ، فإن دراسة البلاغة التقليدية في أطرها القديمة ستبقى ضرورية لفهم التراث العربي الضخم في هذا المجال وتطويره لاستخلاص نظريات حديثة أكثر شمولاً وتجاوزاً للنظرات الجزئية التي طبعت البلاغة التقليدية عادة ، إننا بحاجة إلى ربط البلاغة التقليدية بعلوم العصر في مجالات اللغة والأسلوبية ...يقول الدكتور مصطفى ناصف :" ما تزال دراسة البلاغة كنظام في اللغة شديدة

الأهمية ؛ لأنها تبصرة غير مباشرة بالكثير الذي جدّ في ميدان الفكر اللغوي" (٧) .

ورغم ما تميزت به الأسلوبيات الحديثة من مِسْحة الحداثة والتعقيد أحياناً فإنها ما تزال تمت برحم قوية إلى البلاغة والنحو،حيث إن " دارس الأسلوب لا يمكنه التقدم في حقله ما لم يلمْ بالنحو بكل فروعه،وبالصوتيات وعلم الأصوات الدالة وبالصرف والتركيب وعلم المعاجم وعلم المعاني " (٨) .

وقد أسهبت في إيراد هذه الأقوال لكي أرسّخ منذ البداية مفهومي الخاص بالدرس البلاغي والدلالي المراد للفواصل القرآنية ، وهو الدرس الذي يستفيد لا ريب من مباحث الصوت والصرف والنحو والمعجم والدلالة في متابعة الدرس البلاغي للفواصل .

إن الفاصلة ذات صوت وإيقاع ... وهذا الصوت آخر أصوات صيغة صرفية اسمية أو فعلية مختارة بعناية لتكون نهاية آية قرآنية ، وهذه الصيغة الصرفية ذات موقع إعرابي في جملتها ، وهذا الموقع الإعرابي هو نتاج عمليات نحوية متنوعة من التقديم والتأخير والحذف والزيادة ، أو الرفع والنصب والجر.. إلخ ..

والفاصلة بعد هذا كله ذات دلالة محددة مرتبطة بمضمون آيتها من جهة مؤدية دورَها في الإيقاع الجميل الذي هو من السمات الظاهرة للغة القرآن الكريم .

إذن يتضح بدايةً أن الدرس البلاغي للفواصل سيكون ثمرة دراسات متنوعة شاملة تستفيد من التراث العربي اللغوي والبلاغي وتستفيد كذلك من أعمال المعاصرين من دارسي البلاغة واللغة، لكن ينبغي التنبيه إلى أمر واقع مع هذا كله ، ألا وهو المنظور الخاص أو

الزاوية الخاصة التي تلتقي فيها علوم البلاغة بعلـوم اللغـة وتـستفيد منها ، وهـو عـلى وجـه التحديـد الجانـب التطبيقـي الجـمالي المتعلـق بمستويات الأداء اللغوي ، والله الموفـق .

***

الهـوامش

١. عبد القاهر الجرجاني : دلائـل الإعجـاز:٤٨، دار المعرفـة ، بـيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
٢. الخطيـب القزوينـي : الإيـضاح في علـوم البلاغـة :١١، دار الكتـب العلمية، بيروت د.ت.
٣. انظر: محمد بن علي الجرجاني : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغـة ٢-٣، دار نهضة مصر د.ت.
٤. د/ مصطفى الصاوي الجويني : بلاغة العرب في بيئات الإسلام : ٥-٦، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٥م.
٥. د/ تمام حـسان : اللغـة العربيـة - معناهـا ومبناهـا : ١٨، ط٢ الهيئـة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.
٦. الإيضاح (مرجع سابق) :١٦.
٧. د/ مصطفى ناصف : اللغة والتفسير والتواصل:١٣٨، عـالم المعرفـة (١٩٣) الكويت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٨. رينيه ويليك ، مفاهيم نقدية : ٤٣١، ترجمة : د/ محمد عصفور ، عـالم المعرفة(١١٠) الكويت ١٩٨٧م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الأول

الظواهر الإيقاعية في نهايات الجمل العربية

مع عناية العرب الفائقة بالإيقاع اللفظي كما ذكرنا آنفاً ، فإنهم قد أوْلَوا نهاية الجملة عناية خاصة فجعلوا لها قمة النغم الإيقاعي في القوافي والأسجاع ، وعلى طريقتهم هذه في العناية بآخر الجملة جاءت الفواصل القرآنية ، يقول ابن جني :" ألا ترى أن العناية في الشعر إنما هي بالقوافي لأنها المقاطع ، وفي السجع كمثل ذلك ، آخر السجعة والقافية أشرف عندهم من أولها، والعناية بها أمسُّ ، والحشد عليها أوفى وأهم ، وكذلك كلما تطرف الحرف في القافية ازدادوا عناية به ومحافظة على حكمه" (١).

وهذا الاهتمام بآخر الجملة ظاهرة لغوية عامة ، إذ لا تختص به لغة دون أخرى ، ففي تحليل لأحد أعمال الأديب الروسي "بوشكين" ظهر أن بدايات الجمل ونهاياتها عنده تميل إلى مقدار أعظم من الانتظام الإيقاعي منها في أواسط الجمل" (٢).

والظواهر الإيقاعية في نهايات الجمل العربية هي السجع والقافية والإتباع والفواصل القرآنية ، ودراستنا لها مجتمعة إنما هي لبيان ما بينها من صلة ورحم ، فهي ظواهر إيقاعية لكل منها طبيعة خاصة . ولكنها تهدف في النهاية إلى إحداث النغم الإيقاعي في نهاية الجملة أو بيت الشعر .

إن دراستنا للفواصل في هذا الإطار وسط أخواتها من الظواهر الإيقاعية في نهايات الجمل العربية - مع ما للفواصل من إعجاز خاص - هي إثبات أن القرآن قد استعمل أرقى ما توصل إليه العرب من صور البيان الجميل، مع ما للقرآن من إعجاز خاص في

استعمال اللغة، وهي كذلك إثبات أن القرآن خاطب فطرة الإنسان المجبولة على حب الإيقاع والجمال الصوتي، فكانت الاستجابة الكبرى التي لم تعدلها استجابة في التاريخ لكتاب من كتب السماء !

ومباحث هذا الفصل على النحو الآتي :

١- دراسة في الإيقاع اللفظي .

٢- السجع .

٣- القافية .

٤- الإتباع .

٥- الفواصل القرآنية .

٦- بين مصطلحي السجع والفاصلة .

وينبغي أن نبدأ أولاً بتعريف موجز للإيقاع اللفظي ، وسنفرد لذلك المبحث الأول من مباحث هذا الفصل .

***

أولاً: دراسة في الإيقاع اللفظي

الإيقاع ظاهرة حيوية عامة ، وكل ما حولنا له إيقاعه الخاص به سواء كنّا نحسّ ذلك أم لا ، إن في أمواج البحر وهبّات الرياح وخطوات الأقدام إيقاعاً... واللغة صورة الحياة ، وكل ما نجده في الحياة سنجد له أصداء في اللغة ؛ لأن اللغة تعبير عن الحياة بكل ما فيها من تنوع واختلاف، سنجد في الحياة شخصين أو أكثر تتشابه ملامحهما تشابهاً تاماً لا يكاد يظهر معه الفارق بينهما، وسنجد في اللغة ألفاظاً تتشابه دلالاتها تماماً بحيث يصعب التفريق بينها وهو ما يعرف بظاهرة الترادف ، أما ظاهرة التضاد فقد تجد لها شبهاً في سلوك إنسان ما يظهر يوماً بصورة الملاك وآخر بصورة الشيطان ،أو فيما بين الأبيض والأسود من تضاد، وظاهرة الإيقاع في الطبيعة والحياة

سنجد لها أصداء كثيرة كذلك في اللغة ، فالإيقاع ظاهرة حيوية وهو كذلك"ظاهرة لغوية عامة".[٣]

وإذا تقرر أن الإيقاع ظاهرة لغوية عامة ، فهو في اللغة العربية أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً ، ومصطلح " الإيقاع " معروف عند العرب باختصاصه بالألحان والغناء ، وفي اللسان :" والإيقاع من إيقاع اللحن والغناء ، وهو أن يوقّع الألحان ويبينها ، وسمي الخليل رحمه الله كتاباً من كتبه في ذلك المعنى كتاب الإيقاع "[٤] وهو مشتق من التوقيع ، أي الضرب المنتظم على آلة أو غيرها بنظام معروف ، وذلك في جوهره قائم على التكرار ، وربما تولّد منه فيما بعد ذلك الإيقاع اللفظي الذي يعتمد هو الآخر في جوهره على صور لغوية تكرارية ، كما سنفصّل بعد .

ونشأة الإيقاع اللفظي بألوانه المتعددة في اللغات عموماً يرجع إلى أمرين أساسيين معاً هما :

١ – النشأة الشفاهية للغات .

٢ – الحاجة الفطرية في النفس الإنسانية إلى الصور التكرارية الإيقاعية ، كالوزن والإيقاع والسجع والجناس... إلخ .

لقد نشأت العربية – شأنها شأن اللغات جميعاً – نشأة شفاهية ، وهذه النشأة تركت في اللغات آثاراً واضحة حتى اليوم ، وتلك النشأة الشفاهية تعني أن أصحاب اللغة كانوا أميين لا يكتبون،ومن ثم احتاجوا إلى عناصر كلامية منشطة للذاكرة تعينها على الحفظ والتذكر اللذين يقومان مقام الكتابة والقراءة ، واللغة العربية الجاهلية–والشعر أخصّ آثارها وأهمها–نشأت وازدهرت في ظل هذه الأمية ، ومن ثم فإن" ظاهرة الموسيقية في اللغة العربية تُعزى في

أغلب عناصرها إلى تلك الأمية،حين كان الأدبُ أدبَ الأذن ، لا أدب العين" (٥).

لقد كان التعامل الشفاهي إذن هو الأصل الذي نشأت في أحضانه اللغة ، ومن ثم فإن استعمال اللغة في تلك المراحل المتقدمة يجب أن يخضع للدرس من منظور الاستعمال الشفاهي بكل خصائصه ، ومن خصائص الاستعمال الشفاهي للغة التكرار بألوانه المتعددة ، وأهمها في النثر الجاهلي السجع وفي الشعر الجاهلي تكرار الوزن والقافية ، ثم نزل القرآن الكريم على مذاهب القوم في استعمال اللغة ،فاستعملها بظواهرها المتعددة المعروفة لديهم ومنها التكرار ، ولكن في صور خاصة تناسب تفرّده وجلاله وإعجازه.

إن الثقافة الشفاهية تعتمد في استعمالها للغة على الكلمات الموجزة والأمثال الجامعة للمعاني الكثيرة بلفظ قليل، ومن ثم مالت الأمثال العربية إلى الإيجاز والسجع ، والسجع في جوهره نمط تكراري ، وقد نشأ فن الشعر – على الراجح – متأثراً بهذه البدايات من الأمثال والجمل المسجوعة المتوازنة، وذلك ليلبي للمجتمع حاجته الفطرية الغريزية إلى الإيقاع وإلى تذكر المادة المسموعة التي يراد لها البقاء، وذلك بصبّها في قوالب تكرارية دقيقة ومنتظمة تعتمد على السجع في النثر وعلى الوزن والقافية في الشعر اعتماداً دقيقاً ، إضافة إلى صور تكرارية أخرى في بنية البيت الواحد أو مجموعة أبيات متقاربة ، وكل ذلك يسهل عملية الحفظ والتذكر لهذه المادة اللغوية المميزة عن الكلام العادي ، ولهذا كان الشعر عندهم أشهر وأسير وأذكر ...واحتفظ العرب واعتنوا بالموروث الشعري خاصة في حين ضاع أكثر الموروث النثري الجاهلي ، يقول ابن رشيق:" كان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب

أعراقها، وذكر أيامها الصالحة ... لتهزَّ أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تمَّ لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم شعروا به ، أي فطنوا "(٦).

لقد كان الشعر المبني أساساً على صور تكرارية ذا أهمية كبيرة في المجتمع الشفاهي ، ومما يؤكده قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " كان الشعر علم قوم ، ولم يكن لهم علم أصحّ منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم،ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب في الأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، وألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب مَنْ هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم كثيره "(٧) .

إن البناء اللغوي للقصيدة العربية مؤسس على التكرار في الوزن والقافية،وهذا يفسر لنا سهولة حفظ الشعر واسترجاعه ، ويفسر لنا كذلك صعوبة حفظ الشعر الحر أو المرسل ، وقلة من يذكره من الناس أو يتمثل به،ويفسّر كذلك عدم صلاحيته للغناء الذي يعتمد أساساً على الشعر التقليدي حتى العاميّ منه ، وتلكم قضية أخرى .

وهذا البناء الشعري القائم على التكرار كان ضرورياً في بيئة شفاهية غير كاتبة تحتاج إلى تذكر المادة اللغوية كلما احتاجت إليها،لقد " أحسّ القدماء كما يحسُّ المحدثون بالقدرة على تذكر الكلام الموزون وترديده دون إرهاق للذاكرة"(٨).

والحاجة إلى الإيقاع والوزن حاجة فطرية في النفس الإنسانية ، تحتاج إليها في استعمالها للغة وغيرها ، وتطرب الأذن لسماع الإيقاع وترتاح النفس ، ولذلك علل أرسطو نشأة فن الشعر القائم على الإيقاع بسببين أساسيين ،هما : الحاجة إلى المحاكاة ، أي إلى أن نرى

صورة صوتية لما هو موجود حولنا ، والحاجة الفطرية إلى الإيقاع والوزن ، قال :" يبدو أن الشعر - على العموم - قد ولّده سببان ، وأن ذينك السببين راجعان إلى الطبيعة الإنسانية ، فإن المحاكاة أمر فطري موجود للناس منذ الصغر ، والإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة ، وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريق المحاكاة... وإذا كان وجود المحاكاة أمراً راجعاً إلى الطبيعة ، وكذا وجود الإيقاع والوزن، فإن مَنْ كانوا مجبولين عليها منذ البدء قد أخذوا يرْقَون بها قليلاً حتى ولّدوا الشعر من الأقاويل المرتجلة "(٩).

فالشعر إذن وليد الثقافة الشفاهية ، نما وترعرع في أحضانها ، وأعطته من خصائصها خاصية الإيقاع والتكرار المنشطين للذاكرة ، والثقافة الشفاهية لا بدّ لها من تكرار المادة اللغوية التي يُخشى عليها من الضياع ، وهذا التكرار إما أن يكون بتكرارها كلية ، أي ترديدها وإما أن يكون بإدخال عناصر إيقاعية تكرارية ضمن المادة نفسها لتساعد على حفظها وتذكّرها ، وغالباً ما تلازم الأمران .

والخطابة الجاهلية والأمثال اعتمد فيهما كذلك على صور تكرارية منشطة للذاكرة وميسرة للحفظ ، ولذا نجد هذين اللونين أكثر ما حفظ لنا من ميراث الجاهلية النثري ، وأهم تلك الصور التكرارية السجع الذي يطبع كثيراً من خطب الجاهلية وأمثالها،ومن ثم نزل القرآن الكريم على مذاهب القوم في استعمال اللغة،فجاءت فيه الفواصل لوناً خاصاً من ألوان السجع عند العرب ، على أن القرآن لم يأت كله مسجوعاً، ولم يأت كله مرسلاً ، وهذا شأن بلغاء القوم أيضاً ،كما سنفصل بعد .

والنشأة الشفاهية للحيل التي ابتكرتها الذاكرة للاحتفاظ بالمادة اللغوية وتذكرها لم تمنع استمرار هذه الحيل في الثقافة الكاتبة فيما

بعد،وإن صار وقع تلك الصور التكرارية أقل من ذي قبل ، فلقد قلّ استعمال الكتاب للسجع والجناس ، وها هي القافية وألوان الأوزان القديمة تتعرضان لخطر كبير في ظواهر الشعر الحديث الذي لا يكاد يأبه لوجودهما ، وما نرى ذلك إلا نتيجة لطغيان الثقافة الكاتبة ، وتراجع دور الثقافة الشفاهية عن ذي قبل ، ولكن ثمة موروثاً هائلاً بتلك الصور الإيقاعية ، ولا يتمُّ فهمه وتمثّله بدون إدراك هذا الجانب المهم من جوانبه .

وقد ذكرنا من قبل أن العربية بطبيعتها لغة إيقاعية ، ونعني بالإيقاع هنا كل ما يُحدث نغماً صوتياً مؤثراً ، وهذا النغم - أيّاً كانت صورته - يعتمد أساساً على التكرار الإيقاعي ، والطبيعة الصرفية للعربية تعطيها مجالاً واسعاً لتنويع الإيقاع ، فالعربية ذات طبيعة اشتقاقية ، لا إلصاقية ، ففي كثير من اللغات الأوربية تتكون الكلمة الجديدة من تركيب كلمتين منفصلتين تصيران بالتركيب مصطلحاً أو اسماً جديداً مثل" breakfast " في الإنجليزية ، فهي كلمة مركبة من" break و fast " الأولى فعل بمعنى يحكم أو يكسر والأخرى بمعنى صوم ، والمعنى الحرفي لهما "كسر الصوم" ومما يذكر أن أصل الفطر في اللغة الشق ...والمعنى الجديد لهما بعد التركيب هو "الإفطار".

أما في العربية فيتم التعبير عن المعاني والأحداث بصيغ متنوعة كأسماء الفاعلين والمفعولين وصيغ المبالغة...إلخ، وكلها تشتق من المصدر ، بمعنى أن هناك أصلاً لغوياً واحداً تشتق منه كل ألفاظ المادة وفق نظام معلوم ، وهذه الألفاظ المشتقة قد تدور في مواضع متقاربة من نصٍ ما محدثة ألواناً من الجناس الذي هو ظاهرة إيقاعية ، فاسم الفاعل من الثلاثي - على سبيل المثال - على وزن واحد هو

"فاعل " وعليه سنجد موسيقى في توارد ألفاظ مثل : قابل وحابل ونابل ، ومائل وسائل وقائل ... إلخ .

وقد أبدع عمرو بن كلثوم في معلقته في إحداث الموسيقى اللفظية الداخلية باستعمال اسم الفاعل المجموع المرفوع ، ومن ذلك :

ونحن غداةَ أُوقد في خَزَازَى رفدنا فوق رِفْد الرافدينا
ونحن الحابسون بذي أراطى تَسِفُّ الجِلّةُ الخورُ الدرينا
ونحن الحاكمون إذا أُطعنا ونحن العازمون إذا عُصينا
ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون بما رضينا (١٠)

والخنساء - وهي الشاعرة ذات العاطفة الجياشة - تحبّذ هذا اللون من التكرار الإيقاعي المعتمد على تكرار صيغ المبالغة ، مثل قولها في صخر :

١ - جَمٌّ فواضله ، تندى أنامله كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى
ردّاد عارية ،فكّاك عانية كضيغم باسل لِلقْرن هصّار
جوّاب أودية ،حمّال ألوية سمح اليدين ، جواد غير مِقتار (١١)

٢ -طلاّع مرقبة ، منّاع مَغْلقةٍ ورّاد مشربة ، قطّاع أقران
شهّاد أندية ، حمّال ألوية قطّاع أودية،سرحان قيعان (١٢)

واسم المفعول على وزن مفعول من الثلاثي ، وسنجد موسيقى كذلك في توارد ألفاظ مثل : منصور ومقهور ومبرور ومجرور ... إلخ .

وكل ذلك يعطي نغماً جميلاً ، ويتيح للشعراء التفنن في صوغ القوافي ، وللناثرين القدرة على صوغ السجعات ، وقد اعتمدت الفواصل القرآنية على هذا الموروث وهذه الإمكانات المتنوعة

للعربية،اعتمدت على ذلك بصورة جميلة مؤثرة مثيرة للعقل والوجدان ، قريبة للحسّ الجمالي للإنسان، وما عليه إلا أن يفتح أذنه وقلبه ليستقبل ذلك الجمال وتلكم البلاغة العالية.

إن المؤثرات الصوتية الإيقاعية ذات شأن كبير وأثر خطير في تصوير المعنى ونقله على وجه مؤثر ، ولم تكن أسجاع الكهان ولا قوافي الشعراء لتسحرَ العرب كل هذا السحر إلا لما فيها من إيقاع مؤثر يخالف طبيعة النثر العادي المستعمل في دَرَج الكلام ، والملاحظ عادة " أن المعنى دائماً يعظم شأنه ، ويرقى إذا ما صاحبته المؤثرات الصوتية التوقيعية الخالصة،فشطر امرئ القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبلٍ مُدْبرٍ معاً

بما ينتظم من كلمات قصار ، ذات مقاطع كثيرة وحركات قصيرة ، وأصوات الراء المشددة المكررة،هذا الشطر بهذه الخصائص الصوتية جدير أن يخلق جوّاً موسيقياً خاصاً ، وصورة صوتية معينة قادرة على الإيحاء بتلك الصورة التي تخيلها الشاعر وعبّر عنها،وهي وصف الحصان بسرعة الجري والركض "(١٣).

وثمة ألوان إيقاعية أخرى في شطر امرئ القيس المذكور غير ما ذُكر ، منها ما يخص الوزن الشعري للشطر وهو :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

وهو من بحر الطويل ، والمعلوم أن الأوزان الشعرية كلها مؤسسة على التكرار ، سواء كانت التفعيلات أحادية أم ثنائية ، أما اللون الإيقاعي الآخر فيخص الأوزان الصرفية التي صاغ الشاعر منها شطره،ففيه " مكر ومفر " على وزن واحد هو" مِفْعَل "وهو وزن نادر الاستعمال من صيغ المبالغة، ولذا لا يذكره النحاة فيها عادةً ،

وفيه " مُقبل ومدبر " وهما اسما فاعل من الفعلين الرباعيين" أقبل وأدبر " على وزن واحد هو " مُفْعِل" وفيه كذلك تكرار حرف الميم في أوائل كل كلمات الشطر .

إن هذه الألوان الإيقاعية في هذا الشطر لتؤكد عمق ارتباط العربية بالإيقاع بأنواعه المختلفة ، وتؤكد كذلك الطبيعة الإيقاعية لهذه اللغة وحب العرب لموسيقى الألفاظ، وذلك الحب " جزء من الفطرة الإنسانية ، يستجيب لمطالبها فالنفس تحب التنغيم ، وتهشّ إلى الإيقاع المطرب ، والأصوات الملحنة المتآلفة،ولذلك ربما يسجع بعض الناس في أثناء الكلام دون تعمد ، وربما يكمل بعضهم عباراته بألفاظ لا معنى لها حرصاً على التوازن بين أجزاء الكلام " (١٤) وسنعود فيما بعد إلى مثل هذه الألفاظ التي لا معنى لها حين ندرس ظاهرة الإتباع .

إن لغة الشعر لا تهتم بتسلسل الأفكار وتنظيمها على النحو المنطقي الصارم الذي تمثله لغة النثر ، إنها لغة إيقاعية في المقام الأول ، تظهر في ثوب موسيقى خاص متوشحة بألوان الإيقاع ، مما يعطي الشعر جماله الخاص ، واعمد إلى أي قصيدة جميلة وانثرها نثراً ، ثم اقرأها في حالتيها المنظومة والمنثورة ، لترى الفارق الكبير بين الحالين ولهذا السبب نجد الإنسان يهتز لسماع الشعر ويطرب ، وما كان أسخى الأمراءَ والأثرياءَ حين يسمعون الشعراء ينشدونهم، إن خزائن هؤلاء ما كانت لتفيض بذلك السخاء الذي نسمع عنه ونقرأ في كتب التاريخ والأدب لولا ما أحدثه الشعر من سحر وطرب ، وملاك ذلك كله في نظمه الخاص وإيقاعه الجميل المؤثر ، ولهذا قال النبي ﷺ :" **إنّ من الشعر حكمةً** " (١٥) .

"ومِنْ" في الحديث للتبعيض، أي في بعض الشعر حكمة، وكان النبي ﷺ يحب سماع شعر الحكمة ولو كان من كافر!!وقد استنشد الشريدَ ابن سُويدٍ الثقفيَّ شعرَ أميةَ بن أبي الصلت،ففي صحيح مسلم عن الشريد قال: رَدِفتُ النبيَّ ﷺ يوماً، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت"وفي رواية:فقال رسول الله ﷺ: إنْ كاد ليُسلم"[١٦] أي إن النبي ﷺ سمع شعر أمية وهو كافر لما فيه من التوحيد والحكمة!! بالإضافة إلى جماله البياني بطبيعة الحال.

ولا يقتصر الإيقاع في العربية على لغة الشعر، فللنثر ظواهره الإيقاعية كذلك،ولغة القرآن الكريم مليئة بالظواهر الإيقاعية المؤثرة لأنه خاطب إبان نزوله قوماً ذوي بيان رفيع وبلاغة عالية،تفعل فيهم الكلمات ما لا تفعل السيوف والرماح، ألم يقل النبيُّ ﷺ لحسّان بن ثابت:" اهجُ المشركين، فإن جبريل معك؟ "[١٧] وفي حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: "اهجوا قريشاً فإنه أشدُّ عليها من رشق بالنبل"[١٨].

إن سهام الكلمات المنظومات إذ ذاك كانت أشد من سهام الحديد...ومن ثم نزل القرآن ببلاغته الخاصة ففعل في نفوس القوم ما فعل، كانت كلمات منه قلائل ترتل بصوت جميل تفعل في النفوس فعلها، وقصة إسلام عمر بن الخطاب لسماعه آيات من سورة طه معلومة،إن سماع القرآن مرتلاً يظهر للحسّ فنونه الإيقاعية الجميلة، من تكرار للحروف والكلمات، وتوازن للمقاطع الصوتية، وتناسب الحروف وتوزيعها المتناسق ما بين ساكن ومتحرك ومهموس ومجهور ومفخّم ومرقق... وكل ذلك بميزان دقيق، ثم

ما قد يكون من جناس جميل ...لنصل إلى الفاصلة بما لها من إيقاع خاص كما سنفصل بعد إن شاء الله .

وهذه الموسيقية دعت رجلاً ذوّاقة للبيان كالعقاد إلى أن يقول: التركيب الموسيقي أصل من أصول هذه اللغة، لا ينفصل عن تقسيم مخارجها، ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها ، ولا عن دلالة الحركات على معانيها ومبانيها بالإعراب أو الاشتقاق..."[19]

وقد توصّل علماء النفس إلى بعض أسرار حب الناس للإيقاع ، وارتياحهم لسماع الكلام ذي الإيقاع الجميل المنظم ، فالإنسان " قد يسمع في عشر من الثواني ما يكاد يبلغ خمسين مقطعاً صوتياً ، تسمعها الأذن فتلقطها كُتلاً من المقاطع تطول أو تقصر ، فإذا ترددت في أواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها ، وأحسسنا بغبطة وسرور حين سماعها ، وهنا نلحظ سراً من أسرار حبنا للكلام الموزون المقفّى "[20] .

كيف يتكون الإيقاع اللفظي في نهاية الجملة ؟

إن الوصول إلى العنصر الإيقاعي في نهاية الجملة سواء كان قافية أم سجعاً أم فاصلة يحتاج إلى عمليات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية ، بمعنى أنه لا بد من أن تتشابك وتتساند هذه المستويات جميعاً لتكوين ذلك الإيقاع ، فالصوت المختار في القافية لا بد أن يكون كالصوت السابق له تماماً كالهمزة أو الياء...إلخ ، إضافة إلى حركة ذلك الصوت التي لا بد أن تتكرر كذلك ، أما في السجع والفواصل فثمة حرية أكثر للتنويع بعد مجموعة من الجمل المسجوعة أو الآيات ذات الفواصل المتشابهة المكررة .

واختيار الصوت يعني اختيار الصيغة الصرفية الملائمة التي تحمل ذلك الصوت ، ولابد لها أن تكون مقبولة وزناً وإيقاعاً ، وتحديد الحركة الإعرابية لنهاية الصيغة الصرفية - خصوصاً في القوافي التي تغلب عليها الحركة - يحتاج إلى النحو الذي يقوم بتحديد موقع الكلمة من الإعراب وحركتها ، وإن كان السياق يحتاج إلى تقديم وتأخير للوصول إلى ذلك ، أما في السجع والفواصل فكثيراً ما تكون أواخر الجمل ساكنة مما يسوّغ التسجيع أو الفصل بالمنصوب غير المنون مع المرفوع والمجرور ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٥ - ٢٠٧).

فقد ورد لفظ الفساد منصوباً والمهاد مرفوعاً والعباد مجروراً ، ولكن الوقف يوحّد بينها صوتياً لتؤدي الإيقاع المراد منها، أما في الشعر الذي تغلب عليه الحركة لتحتسب صوتاً ساكناً تنتهي به التفعيلة فإن ذلك يعد إقواءً ، وهو أخطر عيوب القافية لأنه كسر للإيقاع المتكرر في نهاية كل بيت ، وهو كذلك إخفاق نحوي في التوصل إلى الحركة المناسبة وفق تركيب الكلمات بالتقديم والتأخير أو استبدال الصيغ ، وسنورد ذلك مفصلاً فيما بعد .

ومع هذا كله يحتاج المبدع إلى اختيار الكلمة المناسبة للسياق، فليست كل كلمة تحمل الصوت أو الحركة مناسبة للقافية أو السجعة بل لابد أن تكون الكلمة مناسبة للسياق ويحتاج إليها الموقع وإلا بدت نافرة ناشزة ، وذلك من أخطر عيوب القافية والسجع ، حين

يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة تتفق إيقاعياً مع ما قبلها وما بعدها ، لكنها تفشل دلالياً في سد الموقع الذي وضعت فيه.

إن المبدع لا بد له أن يستعين بكل مستويات التحليل اللغوي : الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ليتوصل إلى بناء جملته ، ويتوصل كذلك إلى تركيب الإيقاع الذي يريده ، والإيقاع أساس من أسس البلاغة تحرص عليه وتزكيه لأنه عامل أساسي في إيصال المعنى إلى المتلقي،لا ينكر ذلك متذوق لفن القول ،على أن هذا يخص الأعمال الإبداعية التي يجتهد أصحابها في عملها لا الكلام المرسل أو الشعر المرسل الذي يهمل كثيراً من الظواهر الإيقاعية .

والفواصل القرآنية قد روعي فيها ذلك كأحسن ما يكون وأجمله ، ولقد استغل القرآن الإمكانات الهائلة في العربية لصوغ الجملة وتكوين الإيقاع الذي هو أحد أسس هذه اللغة كما أوردناه منثوراً في مثاني هذه الدراسة ، وكل ذلك أخرج لنا هذا اللون الإيقاعي البديع في القرآن الكريم ، أعني الفواصل القرآنية موضوع درسنا.

وألوان الإيقاع في كلام العرب كثيرة متنوعة ، فمنها تكرار الحروف والمقاطع والألفاظ والأنماط النحوية أو الجمل المتوازنة والوزن والقافية ، أما ما يخصّ نهايات الجمل العربية ، فإن الظواهر الإيقاعية فيها أربعة أنواع ، وهي موضوع المباحث التالية .

****

الهوامش

١. الخصائص : ١/ ٨٥ .
٢. انظر : رينيه ويليك وأوستن وارين : نظرية الأدب : ٢١٤ ، ترجمة : محيي الدين صبحي ، بيروت د. ت .
٣. نفسه : ٢١٢.
٤. لسان العرب : وقع ، ط دار المعارف د. ت .

٥. د/ إبراهيم أنيس،دلالة الألفاظ : ١٩٥ ، ط٦ مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩١م
٦. ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ١/ ٢٠، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٤ دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢م.
٧. أورده ابن جني في الخصائص : ١/ ٣٨٧ ، ط٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
٨. د/ إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر : ١٢، ط٦ مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٨.
٩. أرسطو ، كتاب الشعر : ٣٦-٣٨، ترجمة : د/ شكري محمد عيّاد ، دار الكاتب العربي ،القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م.
١٠. شرح المعلقات السبع للزوزني :١٠٥ ،وذو أراطى: موضع، وتسف: تأكل يابساً ، والجلة : الكبار من الإبل،والخور:الكثيرة الألبان،والدرين : ما اسود من النبات .
١١. ديوان الخنساء:٧٥،ط بيروت ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
١٢. نفسه : ١٣٧.
١٣. ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة : ٨٧ ، ترجمة : د/ كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٨٨م ، والشعر من تمثيل للمترجم .
١٤. د/ السعيد محمود عبد الله، جدوى الوزن والقافية في الصياغة الشعرية ، مقال في مجلة الدارة السعودية : ٦٦ ، عدد : ١ ، شوال ١٤٠٧هـ يونيو ١٩٨٧م.
١٥. حديث صحيح،رواه البخاري (٦١٤٥ - فتح الباري) ط دار الريان للتراث ، وأبو داود في سننه (٥٠١٠) ط دار الحديث ، وابن ماجة في سننه (٣٧٥٥) ط الحلبي ، والترمذي في سننه (٢٨٤٤) ط دار الحديث .
١٦. رواه مسلم (١٥/ ١١) ط الحلبي ، والبخاري في الأدب المفرد : ١٧٢ ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ، وقوله " هيه " اسم فعل أمر بمعنى زِدْني .
١٧. رواه البخاري (٤١٢٤)ومسلم (١٦/ ٤٦) .
١٨. رواه مسلم (١٦/ ٤٨) .
١٩. اللغة الشاعرة : ٣٨- ٣٩، ط دار غريب ، القاهرة د.ت .
٢٠. د / إبراهيم أنيس ، موسيقى الشعر : ٩.

المبحث الثاني : السـجع

السجع ظاهرة معروفة في العربية ، ولها جمالها إذا استعملت بلا تكلف، ودراستنا لها ستكون من المنظور الجمالي الإيقاعي دون الدخول في كثير من التفاصيل التي تمتلئ بها كتب البلاغة عادة عن أنواعه .

والأصل اللغوي للمصطلح يدل على الاستقامة والتوازن ، وفي اللسان : " سجع يسجَعُ سجعاً : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً ... والسجع : الكلام المقفّى ... وسجع: تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن "(1) وقال أحمد بن فارس : " السين والجيم والعين أصل يدل على صوت متوازن ، ومن ذلك التسجيع في الكلام ، وهو أن يؤتى به وله فواصل كفواصل الشعر... "(2) وقيل إنه مأخوذ من سجع الحمام ، قال الرماني : " وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة ، وذلك لأنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة،كما ليس في سجع الحمام إلا الأصوات المتشاكلة "(3).

والسجع مبني في كلام العرب على انتهاء عدة جمل متقاربة بحرف واحد، وفي ذلك شبه بالقافية في الشعر، إلا أن القافية ملزمة في كل أبيات القصيدة لكنْ إيقاع السجع يميل إلى التنوع ، وكلاهما ظاهرة تكرارية إيقاعية تحدث ألواناً من الموسيقى اللفظية التي تقصد قصداً.

والسجع كثير في كلام العرب، وله جماله إذا تطلبه السياق والمعنى فإذا ما جيء به لغرض التشاكل اللفظي دونما حاجة المعنى إليه صار بغيضاً مرذولاً ، قال ابن الأثير:" واعلم أن للسجع سرّاً هو خلاصته المطلوبة ، فإن عَرِي الكلام المسجوع منه فلا يعتد به أصلاً ، وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على

معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها،فإن كان المعنى فيهما سواء فهو التطويل بعينه "(٤).

وقد اعتمدت أكثر خطب الجاهلية وكلام الكهان على السجع لما له من أثر في النفوس وبقاء في الذاكرة ، وذلك لاعتماده على بعض محفّزات الذاكرة ، وهي قصر الجمل وتوازنها وتكرار حرف أو حرفين في أواخر عدة جمل متقاربة،فالسجع بذلك يحقق فائدتين في آن معاً : المتعة البيانية الناشئة عن التكرار الإيقاعي ، وتهيئة الذاكرة للاحتفاظ بالنص في بيئة شفاهية تعتمد على الذاكرة اعتماداً كاملاً .

ومن منافرات الجاهلية التي اعتمدت على السجع ما جاء في تاريخ الطبري:"تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية إلى النجاشي الحبشي فأبى أن ينفّر بينهما ، فجعل بينهما نُفيل بن عبد العزى...فقال لحرب : يا أبا عمرو ، أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة،وأقل منك لامةً ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مِذْوداً ؟ "(٥) .

فقد اعتمد الكلام على السجع في " قامة وهامة ووسامة ولامة ، وفي "ولداً وصفداً ومذوداً "وكل ذلك له أثره الإيقاعي كما لا يخفى ، ومن الملاحظ أن المنافرة لم تعتمد كلها على السجع الموحد ، بل تنوعت السجعات وهو شأن البلغاء من العرب،وعليه أكثر فواصل القرآن الكريم .

لقد كان خطباء العرب يعتمدون على السجع اعتماداً أساسياً في خطبهم ، والعرب تعد ذلك نوعاً من البراعة اللفظية والقدرة على الكلام ، قال عبد القاهر الجرجاني :" والخطب من شأنها أن يُعتمد فيها على الأوزان والأسجاع ، فإنها تُروى وتتناقل تناقل الأشعار ،

ومحلها محل النسيب والتشبيب من الشعر الذي هو كأنه لا يراد منه إلا الاحتفال في الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة " (٦).

ولقد كان الكهان في الجاهلية أكثر استعمالاً للسجع في كلامهم من الخطباء ، وذلك لتأثيره في النفوس ، وكانوا كذلك يدخلون في مثاني كلامهم ألفاظاً غامضة تحتمل كثيراً من التأويل الذي يتسع به المعنى إذا جاءت نبوءة الكاهن كاذبة ... وهذا السجع في الخطابة والكهانة يدل على " أن الجاهليين عُنوا بنثرهم كما عنوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء " (٧).

واستعمل العرب السجع في الأمثال ، وقد كانت للمثل عندهم مكانته ، قال الجاحظ : " وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المِرْفق والانتفاع ، ومدار العلم على الشاهد والمثل " (٨) .

ونذكر من الأمثال العربية التي اعتمدت على السجع ما يأتي :

١ - أَصوصٌ عليها صُوصٌ .

٢ - إن لم تغلبْ فاخلبْ .

٣ - إن أردت المحاجزة فقبل المناجزة .

٤ - أنت تَيِقٌ وأنا مَئِقٌ ، فكيف نتفق ؟ .

٥ - إن لم يكن وفاقٌ ففراق . (٩)

إن صوغ المثل مسجوعاً يسهل حفظه وتذكره سريعاً عند الحاجة إليه،وذلك في بيئة شفاهية تعتمد على الذاكرة دون الكتابة في حفظ موروثها الثقافي وتداوله .

وسنرى أن إقامة السجعة أو القافية كان يستدعي من المبدع تغييراً في بنيــة الكلمــة الأخــيرة بــنقص أو زيــادة أو غــير ذلــك لتوافــق الفواصل،وحدث هذا في بعض الأمثال أيضاً ، قـال الـسيوطي :قـال أبو عبيدة في المثل" أجناؤها أبناؤها " أي الذين جنوا على هذه الدار بالهدم هم الذين كانوا بنوها،قال : وأنا أظن أن أصـل المثـل: جناتهـا بناتها،لا أبناؤها ، لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال إلا أن يكون هذا مـن النوادر،لأنه يجيء في الأمثال ما لا يجيء في غيرها" (١٠)وسنرى صوراً من ذلك في الفواصل القرآنية .

ونأتي بعد كلام العرب وأمثالها - وأغلبه ميراث الجاهليـة - نـأتي إلى كـلام النبي ﷺ الذي تكلم بلغة قومه واستعملها كما يستعملونها ، لنجده يستعمل السجع أحياناً في كلامه ، وقد كان النبي ﷺ يـستعمل السجع أحياناً لأنه يتحدث بلسان عربي مبـين ، وذلـك اللـسان فيـه السجع ، وهو ﷺ يعرف حب العرب للـسجع الجميـل المـؤثر الـذي يتطلبه المعنى ومن ذلك حديث عائشة قالت:" فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته ، فوقعت يدي عـلى بطـن قدميـه وهـو في المسجد وهما منصوبتان ، وهـو يقـول : " اللَّهُـمَّ أَعُـوذُ بِرِضَـاكَ مِـنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " (١١).

لقد بنى الرسول الكريم ﷺ فواصـل دعائـه عـلى حـرف الكـاف الذي جاء في كل المواضع في محـل جـر بالإضـافة أو بحـرف الجـر ، ونلاحظ أن ثمة لونين من التسجيع في الحديث ، الأول في بنية الجملة الواحدة مثل :" أعوذ برضاك من سخطك"والثاني في نهايات الجمل ولذلك شواهد من أشعار العرب كذلك .

وفي حديث علي قال : قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ فِي الْجُنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا ، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ : لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ " (١٢)

والسجعات في الحديث واقعة مواقعها ، وفيها الجمال والبلاغة ، والمعنى يطلبها تماماً ، وقد قصد النبي ﷺ إلى إنشائها قصداً ، لإحداث الأثر الجمالي أولاً ،ولأنه يخاطب أعرابياً تهزّه هذه الألوان البيانية الجميلة هزّاً،والتسجيع مقصود إليه كما قلنا في الحديث ، ولذلك قدم النبي ﷺ وأخّر في تركيب الجملة الأخيرة " وصلى لله بالليل والناس نيام " حيث جمع بين جارين ومجرورين مقدمين على الجملة الحالية "والناس نيام " التي بها تكتمل السجعات ، ومع ذلك فإن هذا التقديم له أهميته الدلالية، فالعمل أولاً لله فقدم ذلك ، ثم إن هذا العمل له أجر زائد إذا كان بالليل ، حيث الناس نيام ، ولذا قدم الليل.

فالسجع الذي يتطلبه السياق هو أحسن السجع ، وهو ذو أثر قوي في تصوير المعنى وتوصيله ، إنه " يؤدي دوراً مهماً في السياق اللغوي ، بل يؤثر تأثيراً كبيراً في تشكيل الدلالات ، ويشحنها بانفعالات غير عادية تجعل لها في عرف الأسلوبيين خصوصية تجاوز الانطباع الذي تحدثه اللغة في سياقها الموضوعي الصارم "(١٣).

ولم يكن النبي ﷺ يكثر من استعمال السجع ، وإنما كان يستعمله أحياناً لضرورة خاصة بغير تكلف أو غرابة لفظ أو زيادة لإقامة التوازن ، وهذه أخطر عيوب السجع ، فالمذموم منه عندهم " ما لم يحتج إليه لأجل المعنى ، وإنما احتيج إليه لأجل التقفية " (١٤).

وقد ذم النبي ﷺ السجع المراد به التكلف وإبطال الحق ، ففي حديث أبي هريرة قال : اقتتلت امرأتان من هذيل فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى رسول الله ﷺ أن دية جنينها غرّة عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها وورثها ولدها ومن معهم ، فقال حَمَل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله ، كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع "(١٥).

فالرجل قد حاول استغلال القيمة البيانية للسجع لما له من تأثير في النفوس، حاول استغلالها في إبطال الحق ، قال النووي:"قال العلماء : إنما ذم سجعه لوجهين، أحدهما أنه عارض به حكم الشرع ورام إبطاله ، والثاني أنه تكلفه في مخاطبته ، وهذان الوجهان من السجع مذمومان "(١٦) ويرى أبو هلال العسكري كذلك أن رسول الله ﷺ ذمّه لتكلفه ، قال : "وكيف يذمه ويكرهه، وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن في صنوف الكلام أحسن منه ؟"(١٧)

والنبي ﷺ كان يستعمل من السجع ما يجمل به الكلام ويحسن، وكان ربما غيّر في بنية الكلمة للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها ، وقد مثل أبو هلال لذلك بقول النبي ﷺ : " أعيذه من الهامة والسامّة وكل عين لامّة "وإنما أراد " ملمة " وقوله :" ارجعْنَ مأزورات غير مأجورات "وإنما أراد " موزورات " من الوزر ، فقال أزورات لمكان مأجورات ، قصداً للتوازن وصحة التسجيع "(١٨).

وقد فصل دارسو البلاغة الحديث عن السجع وأنواعه وما يستحسن منه وما يستكره ، وقد ذكرت أنني لن أخوض في تفاصيل ذلك ، ولكن سأذكره مختصراً .

قالوا :" الأسجاع ثلاثة أقسام: مطرّف ومرصّع ومتوازٍ "[١٩].

فالمطرف هو أن يختلفا في الوزن والقافية كقوله تعالى ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (نوح :١٣-١٤).

والمرصع أن تكون ألفاظ القرينتين متساوية في الوزن والتقفية ، كقول الحريري :"فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه...

والمتوازي هو ما عدا القسمين ، كقوله تعالى ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ (الغاشية : ١٣-١٤).

وهذه المصطلحات للسجع غير مشتهرة عند كثير من الدارسين ، وإنما المعول عند أكثرهم النظر إلى هذا اللون البياني من جهة الإيقاع الذي يؤديه وحاجة المعنى إليه .

وقد أردنا بهذا الموجز تناول السجع بالدرس من المنظور الإيقاعي الجمالي لنخلص إلى أن العرب كانوا يحرصون كل الحرص على إظهار الموسيقى اللفظية في كلامهم ، لما لذلك من وقع في الآذان والقلوب، فهم قوم تسحرهم البلاغة ، كما قال النبي ﷺ:"**إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حِكماً** "[٢٠] وقد نزل القرآن بلغتهم وعلى أساليبهم في استعمال اللغة ، كما سنفصل بعد ، وكان من تلك الأساليب استعمال السجع والفواصل في الكلام .

لقد كان السجع لوناً بيانياً سائداً قروناً كثيرة في ثقافة العرب ، ولئن فقد في عصرنا هذا بعضاً من مكانته فإن لكل زمان متطلباته ، ولا ينبغي أن نقيس قروناً بميزان سنين أو ثقافتها ، لقد كانت للأسجاع في ثقافة العرب الشفهية منها والكتابية مكانة لا تقل عن مكانة الشعر ، وليس " أدل على سحر البيان الشفهي من الأسجاع

التي أفرد لها الجاحظ كلاماً طويلاً... فالأسجاع تورث النهاية، وتساعد على التحكم، وتحفظ السيرورة، المتكلم بالسجع يخيل إليه أنه أحاط بالغائب والحاضر، والأسجاع تساعد على نمو الذاكرة،الأسجاع لبّ الثقافة الشفاهية "(٨).

هكذا كانت الأسجاع ثقافة عصور، ومن ثم نزل القرآن مراعياً طرائق العرب في استعمال اللغة، إن الغرض الأساس من السجع هو الجمال الإيقاعي النابع من تكرار عدة فواصل متشابهة في جمل متقاربة،وهو لون من تحسين الكلام،ولذا عده علماء البلاغة من المحسنات اللفظية التي هي فرع من فروع البلاغة العربية يسمى البديع، وسنرى أن فواصل القرآن الكريم قد استعمل فيها هذا النوع البديعي على أحسن ما يكون وأجمله، حيث يتطلب المعنى الفاصلة، ولا يمكن أن تحل كلمة أخرى محلها.

***

الهوامش

١. لسان العرب (سجع).
٢. مقاييس اللغة (سجع) ط دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
٣. النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. ط٤ دار المعارف ١٩٩١م.
٤. المثل السائر: ١/ ٢١٤،ط دار نهضة مصر د.ت.
٥. تاريخ الرسل والملوك: ٢/ ٢٥٣،ط٦ دار المعارف.
٦. أسرار البلاغة: ٩-١٠، دار المدني ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
٧. د/ شوقي ضيف: العصر الجاهلي: ٤٢٣ ط١٥دار المعارف ١٩٩٢.
٨. البيان والتبيين: ١/ ٢٧١، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. ط٥ الخانجي ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٩. مجمع الأمثال للميداني : ١/ ٤٠، ٣٤، ٤٧ ، ٥١ ،مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ ، والأصوص : الناقة الحائل السمينة ، والصوص : اللئيم ، والخلابة : الخديعة ، والتئق : السريع إلى الشر والمئق : السريع البكاء .
١٠. المزهر : ١/ ٤٨٧، ط٣ دار التراث د.ت.
١١. رواه مسلم ، صحيح مسلم : ٢/ ٢٠٣.
١٢. رواه أحمد في مسنده : ١/ ١٩٥، وهو حديث صحيح .
١٣. د/ محمد يونس عبد العال : من قضايا السجع : ١٣٩، مقال في مجلة الدارة السعودية عدد : ٢، السنة السادسة عشرة ١٤١١هـ .
١٤. الفخر الرازي : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٦٥ ، ط دار الفكر - عمّان ١٩٨٥م .
١٥. رواه مسلم : ١١/ ١٧٧ . وقوله " من أجل سجعه الذي سجع " مدرج في الحديث .
١٦. من شرحه على صحيح مسلم : ١١/ ١٧٨.
١٧. الصناعتين : ٢٨٦، ط٢ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.
١٨. نفسه: ٢٨٦.
١٩. الإشارات والتنبيهات ، لعلي بن محمد الجرجاني :٢٩٨-٢٩٩، دار نهضة مصر د.ت.
٢٠. رواه أبو داود وأحمد ، انظر صحيح الجامع الصغير : ١/ ٤٤١، ط٣ المكتب الإسلامي .
٢١. د/ مصطفى ناصف ، محاورات مع النثر العربي : ٤٨، عالم المعرفة (٢١٨) الكويت ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

ثـالـثاً : القــافية

أدرجنا دراسة القافية في هـذا الفـصل بوصـفها نهايـة البيـت في القصيدة العربية التقليدية والشعر العربي معظمه مبني على أن يكـون البيت وحدة دلالية ولفظية تامة قائمة بذاتها ، ولذا عد النقـاد البيـت الذي يحتاج إلى تكملـة في الـذي يليـه معيبـاً ، ويـسمى هـذا العيـب عندهم " التضمين " قال المرزباني :" وهو بيت يبنى على كلام يكون معناه في بيت يتلوه من بعده مقتضياً له ، فمن ذلك قوله:

وسائِلْ هوازنَ عنّا إذا ما وسعدٌ فسائلْهم والرِّبابُ
لقيناهم كيف نعلـوهمُ بواترَ يفرينَ بيْضاً وهاماً "(1)

فالقافية عندهم آخر البيت لفظاً ودلالة .

وتعد القافية إلى جانب التفعيلات أبرز الظواهر التكرارية في بنيـة القصيدة العربية، وهي التي تعطيها صـورتها الـشعرية المميـزة ، فـلا شعر بلا وزن وقافية ، هكذا حدّ العـرب الـشعر بأنـه قـول مـوزون مقفّى ، والقافية هي المحطـة التـي ينتظرهـا سـامع الـشعر أو قارئـه بشغف وترقب ، فهي نهاية البيـت والجملـة ، أي هـي نهايـة الدفعـة الشعورية والدلالية للبيت ، وهي وحدة موسيقية خاصة تتعود عليها الآذان وتنــتظرها،يقول ابـن رشـيق : "القافيـة شريكـة الـوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يكون شعراً حتى يكون له وزن وقافية "(2).

إن سامع الشعر أو قارئه يتوقع القافية توقعاً،لا للنغمة الموسيقية فحسب ، بل للدلالة أيضاً ، يقول حسان بن ثابت :

تغَنَّ في كل شعر أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمـارُ
يَميزُ مُكفأَه عــنه ويعـزله كما تميزُ خُبْثَ الفضةِ الـنارُ(3)

إنه يطلب من إخوانه الشعراء أن يتغنوا في أشعارهم ،والغنائية سمة للشعر، إنه فن تكراري إيقاعي ، وأهم مظاهر إيقاعه القافية والوزن ، وهذه الموسيقى التي سماها حسان الغناء هي التي تميز جيد الشعر وحسنه من خبيثه ورديئه ، والشاعر لكي يصوغ موسيقاه في البيتين السابقين - على سبيل المثال - قدم في أولهما الجار والمجرور والبدل " لهذا الشعر" على خبر إن " مضمار " لأن قافيته الراء ، ولو كان الكلام نثراً لقال:إن الغناء مضمار لهذا الشعر، وفي ثانيهما قدّم المفعول " خبث"وأخر الفاعل " النار " لصوغ القافية والوزن ، إن القافية " ظاهرة بالغة التعقيد، فلها وظيفتها الخاصة في التطريب كإعادة للأصوات... أما من الناحية الجمالية فترجح وظيفتها أهميتها الوزنية باعتبار أن القافية تشير إلى ختام بيت الشعر... ويفوق ذلك أهمية أن للقافية معنى ، وأنها بذلك عميقة التشابك مع السمات العامة للعمل الشعري " (١).

والتكرار في القافية تكرار مزدوج بالوزن والحرف ، ولذا فهي تمثل قمة النغم في البيت،ومن ثم اهتم بها الشعراء ، واختاروا لها الحروف المساعدة على إحداث النغم،فنجد أن حروف الترنم كالنون والميم وحروف المد واللين أكثر استعمالاً في القوافي،ويقل فيها استعمال الحروف ثقيلة النطق كالقاف والكاف والطاء والظاء والضاد وهو ما سنجده كذلك في حروف الفواصل القرآنية ،كما يقل في القوافي تسكين الحرف الأخير ، والمعتاد فيها إشباع حركة الحرف الأخير حتى تصير كالواو أو الياء أو الألف وتحتسب عند الوزن حرفاً .

ومهمة القافية مع ما تقدم أنها تحفّز الذاكرة ، والشعر ابن الثقافة الشفاهية ، وهو قول مأثور يحتاج إلى التذكر الدائم،والعرب للشعر

أحفظ، وللتمثل به أقرب ، يقول الإمام الشافعي :" الشعر كلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام ، غير أنه كلام باقٍ سائر ، فذلك فضله على الكلام"[5] وسبب هذا البقاء أن الشعر قد طوّر وسائله للبقاء وأهمها الوزن والقافية والتركيب الخاص للكلام .

وقد بلغ من اعتداد العرب بالقافية أن سموا بها القصيدة ، فقالوا: الهمزية والبائية والتائية ... إلخ ، باسم الحرف الأخير منها ، والشعراء أنفسهم أطلقوا على قصائدهم اسم " القوافي " قال سُحَيْم :

أشارتْ بِمِدْراها وقالت لِتِربها
أعبدُ بني الحسحاس يُزجي القوافيا؟[6]

وقال حسان :

فنُحكمُ بالقوافي من هجانا ونضربُ حينَ تختلطُ الدماءُ[7]

أي نكفّ بالقوافي " القصائد " أذى من هجانا ونمنعه .

هكذا بلغ الاعتداد بالقافية عندهم مبلغه ، يقول الدكتور إبراهيم أنيس:" ليست القافية إلا عدة أصوات تتكرر في أواخر الأشطر أو الأبيات من القصيدة ، وتكرارها هذا يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية،فهي بمثابة الفواصل الموسيقية ، يتوقع السامع ترددها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى الوزن"[8] .

وقد حدّ الخليل القافية بأنها" آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن ، والقافية على هذا المذهب - وهو الشائع - تكون مرة بعض كلمة ومرة كلمة ومرة كلمتين "[9].

ويتوقف نجاح الشاعر في سبك أشعاره على مقدرتـه عـلى صـوغ قوافيه إيقاعاً ودلالة ، بحيث تأتي طبيعية غير متكلفة ، يتطلبها المعنى والمبنى ، إن " قيمة القافية الناجحة تكمن في تحويل النهايـة المجتلبـة للتوافق الصوتي إلى ضرورة تحتمها ضرورة التـداعي الـدلالي،بحيث إذا ذهبت تبحث عن بديل لها - بغضّ النظر عن الرويّ - لم تعثر على أوفق من نفس الكلمة"(١٠) .

وبما أن القافية تعدّ أهم المظاهر الإيقاعية في القـصيدة فقـد تفـنن الشعراء في صوغها، إذ هي مظهر العبقرية والإبـداع ، ولـذا عُـدّ أي انحراف بسيط فيها خروجاً عن الموسيقى المألوفة لها ، ومن ثـم يعـد عيباً فيها ، وأشهر عيوبها عندهم الإقواء ، قال ابن قتيبة : " كـان أبـو عمرو بن العلاء يذكر أن الإقواء هو اختلاف الإعـراب في القـوافي ، وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة كقول النابغة :

قالت بنو عامرٍ خالوا بني أسدٍ   يا بؤسَ للجهل ضراراً لأقوام

وقال فيها :

تبدو كواكبُه والشمسُ طالعةٌ   لا النورُ نورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ(١١)

فقد رفع الشاعر آخر البيت " إظـلام " لأنـه خـبر المبتـدأ وكـسر بذلك النغمة الموسيقية المتكررة آخر كل بيت وهـي كسرة الميم التـي تشبع فتصير ياءً ،وقد كان سـامعو الـشعر يحسون بـذلك وينبهـون الشعراء عليه ، وقصة النابغة في ذلك مشهورة ،حيث أقوى في بعض شعره،فأمر سامعوه جارية فغنت بشعره ومدّت الـصوت الـذي فيـه الإقواء ، ففطن لذلك وأصلحه ، وهو قوله :

زعم البوارحُ أن رحلتنا غداً   وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ
لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً بـه   إن كـان تفريق الأحبة في غدِ

فقال في إصلاحه : وبذاك تَنْعابُ الغرابِ الأسودِ.(١٢)

وقد عد نقاد الشعر كل تغير موسيقي في القافية ولو كان قليلاً نشازاً في إيقاعها الجميل المتكرر ، ولهم في ذلك اصطلاحات منها الإقواء - وقد ذكرناه - والسِّناد والإكفاء ، فالسناد اختلاف الحركات قبل الروي ، ومنه قول العجاج :

يا دارَ سلمى يا اسلمي ثم اسلمي

ثم قال : بسَمْسَمٍ أو عن يمينِ سمسم

ثم قال : فخندفٌ هامةُ هذا العالم (١٣)

والإكفاء اختلاف حرف الروي فيجيء مرة نوناً ومرة ميماً أو لاماً وذلك لتقارب المخارج ، ومنه :

أإنْ زُمَّ أجمالٌ وفارق جيرةٌ وصاح غرابُ البين أنت حزينُ

تنادَوْا بأعلى سُحرةٍ وتجاوبت هوادرُ في حافاتهم وصهيل (١٤)

وقد بلغ من اعتداد الشعراء بالقافية وحرصهم على موسيقاها أنهم كانوا يغيرون بنية الكلمة أحياناً لتستقيم لهم موسيقى القافية،ويدخل ذلك تحت باب " الضرورة الشعرية " ومنه قول النابغة :

ألكْني يا عُيَنُ إليك قولاً سأهديه إليك ، إليك عني

قوافي كالسِّلام إذا استمرت فليس يردُّ مذهبها التظني (١٥)

والتظني هو التظنن ، وهو إعمال الظن ، ولكن الشاعر لأجل موسيقى القافية غيّر بنية الكلمة فوضع الياء موضع النون ، وترك للسامع فهم المعنى اعتماداً على السياق .

والطبيعة التكرارية للشعر - وزناً وقافيةً - تُعدّ فيها أحسب السبب المباشر لكل الضرورات الشعرية التي يلجأ إليها الشعراء،وما يُلجئهم إليها إلا إقامة الوزن والقافية ، ولا شك أنهم كانوا يقدمون الوزن وأحكامه الصارمة وكذلك القافية ، أي هيكل القصيدة ، كانوا

يقدمون ذلك على مضمونها،فالضرورة في جوهرها إخضاع اللغة للإيقاع النغمي المتكرر في القصيدة،وتحت ضغط الطلب الإيقاعي ، يُصرف الممنوع من الصرف ، ويقصر الممدود ويمد المقصور ، ويسكن المتحرك ويحرك الساكن ، بل تحذف بعض أطراف الكلمة أو يُغير بناؤها ...إلخ ، بل إن قواعد النحو كذلك يصيبها بعض الحيف لأجل الوزن ، ومن ذلك الإقواء وهو " ليس إلا خطأ في قواعد النحو، يقع فيه الشاعر لكي يحتفظ بموسيقى القافية في شعره "(١٦) والمراد بالخطأ هنا ليس الخطأ في الجملة ذاتها أي ليس في تركيب الجملة ، ولكنه فشل في إحداث التوافق الإعرابي الجالب للحركة في آخر البيت ليتوافق مع ما قبله وما بعده .

والضرورة الشعرية إذن يفرضها الوزن والإيقاع ، ولذلك فالناثر ليس في حاجة إليها ، فهي "رخصة للشاعر ، تتيح له أن يخرج في بعض الأحيان عن الأصل المطرد أو القاعدة النحوية "(١٧)وكتب الضرورات والنحو واللغة مليئة بشواهد للضرورات الشعرية ، التي يحتمها الوزن والإيقاع والقافية .

إن تغيير بنية الكلمة لأجل القافية ليس خروجاً على قواعد اللغة ، وإنما هو مظهر من مظاهر عبقرية الشاعر وإبداعه في استعمال اللغة ، ولا يتهيأ ذلك إلا للفصحاء البلغاء منهم ، وهو على كل حال مطلب من مطالب الإيقاع،وسنرى من ذلك ألواناً أكثر جمالاً ودقة في فواصل القرآن الكريم ، يقول ابن جني عن ضرورات الشعر :
فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها، فاعلم أن ذلك على ما جَشِمه منه وإن دلّ من وجهٍ على جَوْره وتعسّفه فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمّطه ..." (١٨).

وخلاصة القول أن القافية أخت السجع في النثر ، وهما نمطان تكراريان إيقاعيان ، وعلى مذاهب العرب في حبهم لذلك واستعمالهم له في لغتهم نزل القرآن الكريم وفيه الفواصل .

***

الهوامش

١. الموشح :١٩ ، دار نهضة مصر د.ت.
٢. العمدة : ١/ ١٥١.
٣. ديوان حسان : ٢٨٠ ، ط دار المعارف ١٩٨٣م .
٤. نظرية الأدب : ٢٠٨ .
٥. الأمّ للإمام الشافعي : ٦/ ٢١٢ ، ط دار الشعب د.ت .
٦. ديوان سحيم : ٢٥ ط الدار القومية د.ت .
٧. الديوان : ٧٤ .
٨. موسيقى الشعر : ٢٤٦.
٩. العمدة : ١/ ١٥١.
١٠. د/ صلاح فضل : ظواهر أسلوبية في شعر شوقي : ٢١٥ ، مقال بمجلة فصول مج : ١، ع : ٤ ، يوليو ١٩٨١ م .
١١. الشعر والشعراء : ١/ ٩٥ .
١٢. انظر الموشح : ٩ .
١٣. نفسه :٤-٥.
١٤. نفسه :١٨ .
١٥. الديوان : ١٩٣ ، وألكني : دونك رسالتي ، والسِّلام : الواحدة سَلِمَة ككلمة: الحجارة .
١٦. د/ رمضان عبد التواب : فصول فى فقه العربية : ١٦٦ ، ط٢ مكتبة الخانجى ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠م .
١٧. طاهر سليمان حمودة : ظاهرة الحذف فى الدرس اللغوى : ٤٣ ، الدار الجامعية ، الإسكندرية د. ت .
١٨. الخصائص : ٢/ ٣٩٤.

رابعاً : ظاهرة الإتباع

ظاهرة الإتباع ظاهرة لغوية يدخل التكرار عنصراً أساسياً فيها ، وهى في الحقيقة لون تكراري؛ إذ هي إتباع لفظ ما لفظاً آخر على وزنه وصورته مع تغير قليل في الثاني،وإنما لم أضعه مع السجع لأن اللفظ الذي يتم التسجيع به يكون ذا معنى دائماً،أما اللفظ التابع هنا فلا معنى له غالباً،وإنما يؤتى به لأغراض سنذكرها بعد،وهو كذلك لا تتوافر له صورة السجع كما عرفناه من قبل .

يقول الثعالبي في الإتباع : " هو من سنن العرب ، وذلك أن تُتبع الكلمةَ الكلمةَ على وزنها ورويّها إشباعاً وتوكيداً واتساعاً ، كقولهم : جائع نائع،وساغب لاغب ، وعطشان نطشان ، وصَبّ ضب ، وخراب يباب،وقد شاركت العربُ العجمَ في هذا الباب " (١) وهو يعلل للظاهرة بقوله :" إشباعاً وتوكيداً واتساعاً ".

ونحن نرى هذا الإشباع والتوكيد والاتساع متمثلاً فيما يحسّه المتكلم باللفظ مع تابعه بأنه قد نقل المعنى كاملاً ، كما في " خراب يباب..." على سبيل المثال، إنه نوع من تقوية الكلام ، كما جاء في جواب من سئل عن ذلك، قال ابن فارس:"للعرب الإتباع ، وهو أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها أو رويها إشباعاً وتأكيداً ، وروي أن بعض العرب سئل عن ذلك فقال: هو شيء نتِدُ به كلامنا..."(٢).

فالعلة إذن - كما ذكروا - تقوية الكلام بتكرار صوتي يمكّن المعنى فى نفس السامع ، وغالباً ما تكون الكلمة التابعة غير ذات معنى ، وقد رأى بعضهم أنها هي الأولى عينها ، إلا أنهم استوحشوا من تكرارها بلفظها فغيروا فيها حرفاً لئلا يحدث الملل للسامع ،قال ابن قتيبة :" وربما جاءت الصفة فأرادوا توكيدها ، واستوحشوا من إعادتها ثانيةً لأنها كلمة واحدة ، فغيروا منها حرفاً ثم أتبعوها

الأولى،كقولهم : عطشان نطشان ، كرهوا أن يقولوا : عطشان عطشان ، فأبدلوا من العين نوناً .. " [٣].

وعدّه ابن الدهان ضمن التوكيد، قال السيوطي:قال ابن الدهان في الغرة في باب التوكيد : منه قسم يسمى الإتباع ، نحو: عطشان نطشان ، وهو داخل في حكم التوكيد عند الأكثر ، والدليل على ذلك كونه توكيداً للأول غير مبين معنى بنفسه عن نفسه كأكتع وأبصع مع أجمع ، فكما لا يُنطق بأكتع بغير أجمع ، فكذلك هذه الألفاظ مع ما قبلها ، ولهذا المعنى كررت بعض حروفها في مثل : حسن بسن .... إلى أن قال : والذي عندي أن هذه الألفاظ تدخل في باب التأكيد بالتكرار نحو : رأيت زيداً زيداً ..." [٤].

وذكر السيوطي أن ابن فارس قسّم الإتباع إلى قسمين :

١ - أن تكون الكلمتان متواليتين على روى واحد، مثل : حسن بسن ، شيطان ليطان .

٢ - أن يختلف الرويان وهو قليل ، وهذا من حيث اللفظ ، أما من حيث الدلالة فهو على نوعين أيضاً :

١ - أن تكون الكلمة الثانية ذات معنى .

٢ - أن تكون الثانية غير واضحة المعنى ، ولا بينة الاشتقاق ، إلا أنها كالإتباع لما قبلها [٥] .

وقد شرطوا في التابع أن يكون المتبوع متقدماً عليه ، وأن يكون على زنة المتبوع ، فهو لا يفيد معنى وحده،ولا يأتي منفرداً دون المتبوع وفى هذا دلالة على أن الإتباع إنما هو للتوكيد، فهو إشباع للكلام وإطالة له ليتمكن المعنى في نفس السامع ، وكذلك يجد المتكلم به بعض الراحة لتصوره أنه نقل المعنى المراد نقلاً معبراً .

ولخص الاستراباذي رأيه في ظاهرة الإتباع بقوله عنه إنه " من قبيل تقوية اللفظ بموازنه ، مع اتفاقهما في الحرف الأخير ، ويسمى إتباعاً ، وهو على ثلاثة أقسام، فإما أن يكون للثاني معنى ظاهر نحو هنيئاً مريئاً ، أو لا يكون له معنى أصلاً بل ضُم إلى الأول لتزيين الكلام لفظاً وتقويته معنى ، وإن لم يكن له في حال الإفراد معنى ، نحو قولك: حسن بسن ، أو يكون له معنى متكلف غير ظاهر نحو : خبيث نبيث ، من نبثت الشر أى استخرجته "(٦)

وعده الدكتور إبراهيم أنيس أحد مظاهر الموسيقى اللفظية ، قال:" ومن مظاهر الموسيقية في نثر اللغة تلك العبارات الكثيرة التي تشتمل على ما يسمى بالازدواج أو المزاوجة مثل: حسن بسن، وشيطان ليطان، وعفريت نفريت ونحو هذا من عبارات تنتهي بكلمات لا معنى لها ، ولا تستعمل مستقلة ، وإنما جيء بها لتقوية البنية فيما يسبقها من كلمات بترديد الأصوات المتماثلة ، وإن لم تفد معنى جديداً في غالب الأحيان "(٧).

لهذه الأسباب أدرجت الإتباع ضمن الظواهر الإيقاعية في نهايات الجمل العربية مع علمي بندرة استعماله ، ولكنا نحصي هذه الظواهر لنتفهّم طبيعة العربية التي بها نزل القرآن الكريم .

***

الهوامش

١-فقه اللغة : ٢٤٨ .
٢-الصاحبى : ٤٥٨ ، ط الحلبى د . ت .
٣-تأويل مشكل القرآن : ٢٣٦ - ٢٣٧ .
٤-- المزهر : ١ / ٤٢٤ - ٤٢٥ .
٥- نفسه : ١ / ٤٢٤ .
٦- شرح الكافية : ١ / ٣٣٣ .
٧-دلالة الألفاظ :٢٠٤ .

خامساً: الفواصل القرآنية

الفواصل القرآنية لون مميز من ألوان السجع في لسان العرب : وقد تحرّج بعض الدارسين من إطلاق لفظ السجع على الفواصل القرآنية ، كما سنورد بعد في مبحث خاص .

والفاصلة القرآنية لون إيقاعي ظاهر،وهى في الحقيقة ظاهرة تكرارية، ولهذا التحرج المذكور من تسميتها سجعاً أفردناها بدرس مستقل في هذا الفصل وسط الظواهر الإيقاعية المشابهة لها في نهايات الجمل العربية .

وقالوا في تعريف الفاصلة :" هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع ، وقال الداني : كلمة آخر الجملة ...وقال القاضي أبوبكر : الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني ..." (1).

وفى القرآن الكريم نجد السور الطوال والقصار على حد سواء يظهر فيها أثر الفواصل في التنغيم ، مما يعطى القرآن جمالاً فوق جماله والعنصر الإيقاعي في القرآن الكريم يُقصد إليه قصداً ، ولذا ورد الأمر بالترتيل وتحسين الصوت بالقراءة .

والعنصر الإيقاعي لا يقتصر على الفاصلة ، بل هي إحدى صوره العديدة في القرآن الكريم، وإطلاق لفظ الإيقاع أو الموسيقى اللفظية على هذه الصور الموسيقية في القرآن الكريم أمر مقبول عموماً لدى الدارسين"ولا يحق لنا أن نستشعر حرجاً في الحديث عن العنصر الإيقاعي في الأسلوب القرآني وما لهذا العنصر الهام من أثر جعل آيات القرآن تنفذ إلى أفئدة الناس وعقولهم، وموسيقى الألفاظ طاقة من صنع الله وإبداعه ، أجراها في اللفظ على ألسنتنا ... لهذا لم يجد

البلاغيون القدامى والمحدثون حرجاً في الاستشهاد بآيات القرآن الكريم على ظواهر إيقاعية جرسية تندرج فيما أسموه بالبديع اللفظي"[2].

لقد جاء العنصر الإيقاعي في الفواصل القرآنية إغناءً للعرب المجبولين على حب القوافي والأسجاع لما فيهما من إيقاع جميل مؤثر... جاء إغناء للعرب بما هو أطيب وألذُّ للأسماع والعقول، وأكثر بركةً وثواباً.

وفي القرآن الكريم نجد سوراً كاملة تنتهي آياتها بفاصلة واحدة، كما في سورة القمر التي تنتهي كل آياتها بحرف الراء، وعددها خمس وخمسون آية، وهي ذات نظم عجيب بديع، حيث الآيات قصار متتابعات، والفاصلة متمكنة من المعنى لا يطلب غيرها، بل نجد صيغاً صرفية مستعملة مكان صيغ أخرى لإقامة الفاصلة على الوزن الذي تسير عليه من بداية السورة، ومن ذلك استعمال لفظ عَسِر مكان عسير، في قوله تعالى ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(٨) وذلك لأن الفاصلة في السورة ليس فيها المد المعتاد بحرف علة قبل الحرف الأخير، ولفظ عسير مستعمل في الفاصلة في موضعين في القرآن[3] لأن الفواصل في ذينك الموضعين تتطلب ذلك، ونجد في فواصل هذه السورة كذلك حذف ياء المتكلم في الآية السادسة عشرة "ونذرِ" ويوقف على الراء بالسكون لتحقيق التناغم مع الفواصل الأخرى، ويتكرر ذلك في مواضع أخرى من السورة.

وكذلك من المعتاد استعمال لفظ "سعير" في القرآن، ولكن الفاصلة هنا كما قلت ليس فيها المد المعتاد في الفواصل فيستعمل لذلك لفظ " سُعُر " مكان سعير، في الآية الرابعة والعشرين، ولأجل الفاصلة

يحذف المفعول في ﴿ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾(٢٨) ويقدم المفعول على الفاعل في ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ (٤١)وتأتي ﴿ مُسْتَطَرٌ ﴾ (٥٣) مكان " مسطور" لوجود المد في "مسطور".

إن القرآن الكريم يعطى الفواصل أهمية كبرى،فهي التي يوقف عليها أثناء التلاوة،وبها تنتهي الآيات،ولها أهميتها الدلالية والصوتية،والتكرار فيها واضح، والقرآن نزل على أساليب العرب في الكلام،مع الفارق بينه وبين كلام العرب بطبيعة الحال.

والفاصلة ذات أثر صوتي خاص،فمن جهة يعطى التكرار لوناً موسيقياً خاصاً، ومن جهة أخرى يعطى الترنيم بالمد والنون أو المد والميم-وهو الغالب على الفواصل في القرآن كما سنفصل بعد -يعطى جمالاً صوتياً خاصاً،قال السيوطي:"كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون،وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك،كما قال سيبويه : إنهم إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون،لأنهم أرادوا مدّ الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا،وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع"(٤).

وأكثر الحروف دوراناً في الفواصل القرآنية حرف النون ، ويعلل الدكتور إبراهيم السامرائي لذلك بقوله : "ولعل النون من الأصوات التي يحسن السكوت عليها للغنة التي تحصل في النطق غناءً أم ترسلاً في القول ومن أجل هذا لزمتها الفواصل القرآنية المسجوعة "(٥).

ومع ذلك فإن الفاصلة القرآنية تأتى في موضعها تابعة للمعنى وهو يطلبها ، ولا نجد غيرها يحل محلها ، كما هو المعتاد في كثير من سجع العرب "فسجعات القرآن نازلة في مواضعها ، ملائمة لمواقعها ، بريئة من التكلف ، تتبع فيها الألفاظ المعاني ، فلا نقص ولا زيادة ولا تكرار لضرورة السجع "(٦).

إن الحروف المكررة في الفاصلة تساعد على الحفظ والتذكر،مع ماالها من فوائد أخرى كما ذكرنا،ولذا فالقرآن يعطى الفاصلة كما ذكرت أهمية كبرى،ولذلك تحدث فيها ألوان من الحذف والزيادة لإقامة الوزن،وقد ذكر الثعالبي ذلك تحت باب"حفظ التوازن"وقال فيه :" العرب تزيد وتحذف حفظاً للتوازن وإيثاراً له،أما الزيادة فكما قال تعالى﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (الأحزاب:١٠) وكما قال ﴿ فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (الأحزاب:٦٧) وأما الحذف فكما قال جل اسمه ﴿ والليلِ إذا يَسْر﴾ (الفجر:٤) وقال﴿الكبيرُ المتعال﴾ (الرعد:٩) و ﴿ يوم التنادِ﴾ (غافر:٣٢) و﴿يومَ التلاق﴾ (غافر:١٥) وكما قال لَبيد:

إن تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ وبإذن الله رَيْثى وعجلْ(٧)

إن المعتاد في العربية أن الاسم المحلَى بالألف واللام لا ينون،ولكن الفواصل في سورة الأحزاب تنتهي بالألف المنونة التي يوقف عليها بالفتح،ولأجل إحداث التوازن الإيقاعي المعتاد تكسر هذه القاعدة،ونجد"الظنونا والسبيلا" منتهيتين بهذه الألف نفسها.

والكلمات "يسر"و" المتعال "والتناد" والتلاق" و"عجل"كلها حذفت منها الياء لمراعاة الفواصل السابقة واللاحقة في القرآن،والقافية في الشعر، ويوقف عليها بالسكون لتحقيق ذلك أيضاً،وكل ذلك للعناية بالإيقاع كما ذكرنا.

والعنصر الإيقاعي الناشئ عن التكرار الصوتي التام أو المتنوع هو الغالب على فواصل القرآن ، بمعنى أنه مراعى فيها تماماً ، ولأجل الحفاظ عليه تحدث تلك" التوازنات"السياقية - إن صح التعبير - في فواصل كثيرة ، وهى مع ذلك لها بلاغتها في مواضعها ، مع التمكين لذلك كله بالإيقاع المتكرر في الفاصلة،وقد سمى شمس الدين بن

الصائغ الحنفي هذه"التوازنات" باسم "المناسبة "وسنذكر ها هنا تلخيصاً لبعض ما ذكره من هذه المناسبات التي تُغير فيها الفاصلة لتتناسب مع الفواصل الأخرى في السورة نفسها ، قال:"اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية ، يرتكب لها أمور من مخالفة الأصول ، قال : وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآيِ مراعاة للمناسبة،فعثرت على نيف وأربعين حكماً "[٨]

ونحن نكتفي هنا بذكر بعض ما أورده ابن الصائغ للدلالة على ما نحن فيه من أن للفاصلة في القرآن أهمية كبرى، مراعاة للنظم والإيقاع المتكرر الناشئ منها ، ومما ذكره :

١-تقديم المفعول،إما على العامل نحو﴿ أَهَـؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (سبأ: ٤٠) أو على الفاعل نحو﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ (القمر:٤١) ومنه تقديم خبر كان على اسمها نحو﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:٤)

٢-تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو﴿ فَلِلَّـهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ (النجم:٢٥) ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى نحو﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ (القصص:٧٠).

٣-تقديم الفاضل على الأفضل ﴿ بربِّ هارونَ وموسى﴾ (طه:٧٠)

٤-تقديم الضمير على ما يفسره نحو﴿ فأوجسَ في نفسِهِ خيفةً موسى﴾ (طه:٦٧)

٥- حذف ياء الفعل غير المجزوم نحو﴿والليلِ إذا يسرِ﴾(الفجر:٤)[٩] .

هذه صور قليلة ذكرناها للتمثيل فحسب ونترك تفصيل ذلك إلى مباحث قادمة وإنما أردنا أن نثبت أن القرآن الكريم النازل بلسان

عربي مبين وعلى مذاهب العرب في استعمال لغتهم قد راعى هذا اللون البياني المحبب إلى نفوس العرب، فجاءت الفواصل المذكورة - وغيرها كثير - بالحذف والتقديم والتأخير وغير ذلك لمراعاة الإيقاع اللفظي .لقد اهتم القرآن الكريم إذن بهذا اللون الإيقاعي اهتماماً بالغاً،لما له من أثر في توصيل المعنى،ووردت فيه سور كاملة تنتهي بفاصلة واحدة، خصوصاً السور القصار في القرآن المكيّ،ومن ذلك سور "الأعلى والليل " وسورة الشمس التي تنتهي جميع آياتها بالضمير"ها" رغم اختلاف موقعه الإعرابي من آية لأخرى ما بين الجر بالإضافة والنصب على المفعولية ، ولكن اختيار الضمير المذكور للفاصلة وحّدها صوتياً،وجاءت جميع الفواصل تابعة للمعنى لا يطلب غيرها.

فالفاصلة إذن لها أغراض كثيرة ، فهي إحدى وسائل التذكر والعون على الحفظ ، وهي تعطي نغماً صوتياً محبباً إلى النفس ، يلذّ للسمع،وهي كذلك إغناء للفطرة العربية المجبولة على حب القوافي والأسجاع،إغناء لها عن ذلك بما هو خير منه وأطيب وأكثر إحكاماً ودقة وثواباً ، وهذا لا يعني الاستغناء عن الشعر والنثر ، بل نعني بذلك طلب المتعة البيانية الحقيقية في القرآن الكريم أولاً.

وفي القرآن الكريم نجد سوراً تغلب عليها الفاصلة التي تكون صورتها فعلاً مضارعاً من الأفعال الخمسة مسنداً إلى واو الجماعة في حالة الرفع مثل: يفعلون أو يعلمون أو يفقهون ...إلخ، أو يقوم مقام ذلك اسم الفاعل في صيغة جمع المذكر السالم في حالاته الإعرابية الثلاث، وهذا لا يمنع من وجود فواصل أخرى في السورة نفسها ليست على هذه الصور ، مثل صيغة فعيل أو فعول ، وتغلب هذه

الألوان التي ذكرتها -على سبيل المثال -على سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم .

ولا يختلف القرآن المكي عن المدني في الاعتناء بالفاصلة إلا أنها في القرآن المكي أقل تنوعاً وأكثر اطراداً عنها في القرآن المدني،ولو قارنا بين سورتي مريم والنور -على سبيل المثال- فسنجد أن الأولى تنتهي بفاصلة واحدة من أولها إلى آخرها هي الألف المنونة المنصوبة ما عدا بضع آيات سنذكرها في موضعها أما سورة النور المدنية فتتنوع فيها الفاصلة من الفعل المضارع المرفوع المسند إلى واو الجماعة مثل " تذكّرون " إلى اسم الفاعل " المؤمنين " إلى صيغة المبالغة " رحيم " ... إلخ ، في حين تتسم الفاصلة في سورة مريم والكهف والفرقان على سبيل المثال - وهي سور مكية - تتسم بالاطراد والتكرار ، وهي تنتهي بالألف المنونة غالباً .

والقرآن الكريم لم يأت كله مسجوعاً ولم يأت كله مرسلاً ، وكذلك أساليب العرب وما جاء منه من السور على فاصلة واحدة فمن السور القصار وقد جاء في أعذب بيان وأجمله قال ابن سنان : فإن قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود،فهلا ورد القرآن كله مسجوعاً ؟ وما الوجه في ورود بعضه غير مسجوع ؟ قيل : إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعادتهم ، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعاً لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع ...فلم يرد كله مسجوعاً جرياً على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم ، ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض كلامهم على الصفة التي قدمناها "(١٠١) .

لقد جمع القرآن بأسلوبه الفريد بين مزايا الشعر والنثر وجمالهما معاً فهو لم يتقيد بالسجع تماماً كقافية الشعر الملزمة وبعض الأسجاع ،ولم

يفقد خصيصة التسجيع في بعض فواصله كما كانت عادة البلغاء من العرب ، وكان قصر الآيات -خصوصاً في السور القصار من القرآن المكي - مع الفواصل يؤديان وظيفة الإيقاع الداخلي والخارجي معاً .

تحديد الفاصلة :

جرى الحديث عن الفواصل عند القدماء والمحدثين على أن الفاصلة هي الكلمة الأخيرة من الآية ، وهي التي تحمل الصوت المشابه إن كان ثمة تسجيع مع ما قبلها وما بعدها .

على أننا نذكر ها هنا أمراً غفل عنه كثير من الدارسين ، وهو أن لفظ الفاصلة لفظ عام يشمل كل الفواصل القرآنية ، ما جاء منها مرسلاً وما جاء مسجعاً ، فليست كل الفواصل مرسلة ولا كلها مسجوعة ، فثمة فواصل إذن مسجعة وأخرى مرسلة،وإغفال هذا الأمر كان سبباً من أسباب الاختلاف في الفواصل والأسجاع الذي هو موضوع المبحث القادم.

إن بين لفظي الفواصل والأسجاع عموم وخصوص ، فالفواصل عامة لكل فاصلة ،والأسجاع تخصّ ما جاء مسجوعاً من فواصل القرآن ، ولا تستطيع أن تقول عن الآيات التي وردت فواصلها غير مسجوعة إنها من قبيل السجع ، وهذا أمر معلوم غفل عنه كثير من الدارسين .

أما التحديد اللفظي للفاصلة فإني أفضل وجهاً أدق لتحديدها ، وهو وجه يتناسب مع واقع الأسلوب القرآني وتراكيب آيات القرآن،فنحن نقسمها باعتبار الصوت والدلالة إلى نوعين :

أ- باعتبار الصوت نقول إن الفاصلة آخر كلمة في الآية وهي حاملة الصوت المشابه الذي يحدث التسجيع إن وجد ، فالفاصلة بهذا الاعتبار تسمى كلمة الفاصلة .

ب- وباعتبار الدلالة نجد جملة الفاصلة ، وفيها تكون كلمة الفاصلة جزءاً من تركيب جملة مستقلة في نهاية الآية، وهي جمل تأتي للتعقيب أو لتقرير مضمون الآية غالباً ، وهذه الجمل المستقلة التركيب يقع فيها التصرف النحوي والتنوع لبناء الفاصلة ، ففي الفواصل المنصوبة سنجد تركيب الجملة النحوي يستدعي نصب آخرها كأن تكون خبراً لكان مثل ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (النساء : ١٠٠) أو ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء: ١٦٥) أما إذا كانت مرفوعة فيأتي تركيب الجملة بالرفع مثل ﴿ والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ و﴿ إن اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (المزمل: ٢٠) و﴿ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٢٨) وهذا كثير في القرآن الكريم ، وفيه من البلاغة والحكمة وجمال البيان ما فيه .

وأوضح مثال لجملة الفاصلة ما جاء في فواصل سورة النساء حيث يكثر ختم آياتها بجملة معقبة أو مقررة مستقلة من حيث التركيب النحوي ، وفيها جاءت أكثر الفواصل منصوبة، وتنوعت أسباب النصب من المفعولية إلى خبر كان أو صفته أو الحال إلى المفعول المطلق أو صفته ... إلخ .

وأكثر فواصل القرآن تكون كلمتها نهاية الآية والجملة معاً ، بمعنى أن الفاصلة ختام جملة مستقلة غالباً، ولا تتعلق نحوياً بما قبلها أو بعدها ، غير أن هذا لا يطرد في كل الفواصل ، وكما ذكرنا من قبل في القافية أنها نهاية البيت ، إلا أننا ذكرنا كذلك التضمين ، وكان عندهم من عيوب القوافي ، وهذا التضمين موجود كذلك في بعض فواصل القرآن،ولكنه ليس كثيراً فيها ، وإذا كانوا قد عدوه من عيوب الشعر ، فقد جاء في القرآن في أجمل بيان ؛ لأنه ليس من عيوب النثر ، ومن شواهد ذلك :

١ -﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات : ١٣٧ - ١٣٨) حيث جاء الجار والمجرور "وبالليل" معطوفين على مصبحين وكأنه تمام الآية ، ولكنها ليست الفاصلة ، ولذا قال العكبري :" وبالليل ، الوقف عليه تام " (١١)

٢ - ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف : ٣٤-٣٥) حيث جاء لفظ " زخرفاً " معطوفاً عطف مفردات على " أبواباً " بعد انقضاء الفاصلة وابتداء آية أخرى ، ولم يأت اللفظ فاصلة مراعاة للإيقاع ، ولذا فالوقف عليه تام كسابقه،وفيه كذلك مراعاة الدلالة مع الإيقاع ، فقد ذكر في الأولى الأسس التي تقوم عليها البيوت من الأبواب والسرر ، ثم جاءت الفاصلة الموقّعة ، ثم جاء الزخرف وهو من غير الضروريات في البيوت ، ولذا أخر ذكره ، والله أعلم.

٣- ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٤-٥) ورد لفظ الذين صفة للمصلين ، ولكنه في هذا الموضع يحتاج إلى الوصل بما قبله لئلا ينقلب المعنى،ولذا رسمت علامة "لا" في بعض المصاحف على لفظ المصلين وهي علامة عدم جواز الوقف في هذا الموضع لتعلق اللفظ بما بعده.

٤ -﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ (هود: ٥٤-٥٥) حيث جاء الجار والمجرور "من دون" متعلقين بالفعل تشركون في الآية السابقة .

وهذا الذي ذكرنا شواهد له قليل في القرآن الكريم قال السيوطي:"كثر في الفواصل التضمين والإيطاء لأنهما ليسا بعيبين في

النثر ، وإن كانا معيبين في النظم ، فالتضمين أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقاً بها كقوله تعالى﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ ﴾ والإبطاء تكرر الفاصلة بلفظها كقوله تعالى ﴿ هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ (الإسراء:٩٣) وختم بذلك الآيتين بعدها"[١٢].

أنواع الفواصل : وكما ذكرنا في أقسام السجع من قبل فقد ذكر البلاغيون للفواصل أنواعاً كذلك ، وهي عندهم على النحو الآتي:[١٣]

أ- المطرّف : وهو أن تختلف الفاصلتان في الوزن وتتفقا في حروف السجع نحو ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (نوح: ١٣-١٤)

ب- المتوازي : وهو أن تتفق الفاصلتان وزناً وتقفية ولم يكن ما في الأولى مقابلاً لما في الثانية في الوزن والتقفية نحو ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ (الغاشية : ١٣-١٤) .

ج- المتوازن:وهو أن تتفقا في الوزن دون التقفية نحو﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية :١٥- ١٦) قلت : ونلاحظ أنهما متفقتان في التقفية بالتاء كذلك .

د- المرصّع : وهو أن يتفقا وزناً وقافية ، ويكون ما في الأولى مقابلاً لما في الثانية كذلك نحو﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (الغاشية : ٢٥- ٢٦)

هـ- المماثل : وهو أن يتساويا في الوزن دون التقفية ، وتكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية...نحو﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الصافات : ١١٧ -١١٨)فالكتاب والصراط متوازنان وكذا المستبين والمستقيم ، واختلفا في الحرف الأخير .ا.هـ .

قلت : إن كل ما نورده من أقوالهم ليؤكد عمق إحساسهم بما للفواصل من بلاغة وإيقاع مؤثر في نفوس العرب الفصحاء الذين تلقوا هذا البيان الرفيع ، وفي نفوس كل من تكون لديه المقدرة اللغوية لتذوق أسرار هذا البيان الجميل وسنفصل في الفصلين الثاني والثالث – إن شاء الله – ما أجملناه هنا، وإنما أردت دراسة الفاصلة في هذا المبحث وسط أخواتها من الظواهر المشابهة .

***

الهوامش

١ . البرهان للزركشي: ١/ ٨٣-٨٤ ، وسنورد كلام الباقلاني مفصلاً بعد .

٢ . د / السعيد محمود عبد الله : جدوى الوزن والقافية في الصياغة الشعرية ، مقال في مجلة الدارة : ٦٦ ، ع : ١ شوال ١٤٠٧ هـ - يوليو ١٩٨٧ م .

٣ . في قوله تعالى ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ (المدثر:٩) وقوله سبحانه﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ (الفرقان:٢٦).

٤ . الإتقان : ٢ / ١٣٤ .

٥ . فقه اللغة المقارن : ١٢٦ ، ط٢ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٨ م .

٦ . د/ أحمد الحوفي : سجع القرآن فريد ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية:٩٦،ع :٢٨ رمضان ١٣٩١ هـ ، نوفمبر ١٩٧١ م .

٧ . فقه اللغة : ٢١٧ - ٢١٨ .

٨ . الإتقان : ٢/ ١٢٦-١٢٧ .

٩ . نفسه:٢/ ١٢٧ .

١٠ . سر الفصاحة : ١٦٢ .

١١ . إملاء ما منَّ به الرحمن :٥٠٣، دار الفكر بيروت، ١٤٠٦ هـ–١٩٨٦ م.

١٢ . الإتقان:٢/ ١٣٥ .

١٣ . نفسه:٢/ ١٣٣ .

سادساً : بين مصطلحي السجع والفاصلة

ذكرت من قبل نبذاً عن السجع والفواصل القرآنية ، وهما متشابهان من حيث الشكل لا ريب ، ولذا وقع الخلاف بين العلماء حول تسمية الفواصل ، فسماها بعضهم سجعاً،وسماها آخرون فواصل أو رؤوس الآي ، وسنعرض بإيجاز لخلافهم في هذا المبحث .

بدأت الإشارة إلى الفواصل في مباحث اللغة والبلاغة عند الفرّاء في معاني القرآن ، ولكنه سماها رؤوس الآي ، وهو يعلل بعضاً من صور الحذف والتقديم والتأخير أو إحلال صيغة محل أخرى...كل ذلك يعلله برعاية الفواصل ،قال في قوله تعالى﴿ **سيهُزمُ الجمعُ ويولون الدبرَ**﴾ (القمر :٤٥) معناه : الأدبار ، وكأن القرآن نزل على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع ، ألا ترى أنه قال﴿ **إلى شيء نُكُر**﴾ (القمر:٦) فثقّل في (اقتربت) لأن آياتها مثقلة ، وقال ﴿ **فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نُكْراً**﴾ (الطلاق:٨) فاجتمع القراء على تثقيل الأولى وتخفيف هذا ، ومثله ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ (الرحمن :٥) وقال ﴿ **جزاءً من ربك عطاءً حساباً**﴾ (النبأ:٣٦) فأجريت رؤوس الآي على هذه المجاري ، وهو أكثر من أن يضبطه كتاب "[1].

وسمى الطبري الفواصل باسم رؤوس الآي كذلك ، وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿**والليلِ إذا يسر**﴾(الفجر:٤) قال:"واختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الشام والعراق ﴿ **يسر**﴾ بغير ياء،وقرأ ذلك جماعة من القراء بإثبات الياء، وحذف الياء في ذلك أعجب إلينا،ليوفق بين رؤوس الآي إذْ كانت بالراء "[2].

واستعمل ابن خالويه مصطلحي"رؤوس الآي والفواصل " معاً قال في قوله تعالى ﴿ **كذّبتْ ثمودُ بطغواها** ﴾ (الشمس : ١١) قال :

"وطغوى بمعنى طغيان ، والطغيان في اللغة مجاوزة الشيء حدّه ... فإن قال قائل : فلمَ قيل بطغواها ؟ فقل : لتوافق رؤوس الآي ، كما قال الله تعالى ﴿ إن إلى ربك الرُّجعَى ﴾ (العلق:٨) يريد الرجوع ، ولكنه أتى به على الرجعى ليوافق الفواصل "[٣].

وقد ثار الخلاف من بعدُ حول المصطلح حين عرض الرماني للمسألة فنفي وجود السجع في القرآن وفضل استعمال مصطلح الفواصل ، قال : "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني ، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، أما الأسجاع فتابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة "[٤].

لقد نظر الرماني إلى مصطلح السجع فوجده مأخوذاً من سجع الحمامة الذي ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، ثم إن له ارتباطاً قوياً بميراث الجاهلية النثري ، خصوصاً سجع الكهان الذي أبطله الإسلام وأبطل الكهانة...كل ذلك جعله ينكر وجود السجع في القرآن وينزهه عن ذلك.

والحقيقة أن صورة كل من الفواصل والسجع كما وردت عندهم صورة لغوية واحدة من حيث الشكل ،ولكن السجع يخص كلام العرب غالباً، والفواصل تخص القرآن وحده،ذلك أن القرآن نازل بلسان العرب وعلى مذاهبهم في الكلام،ومنها الإيجاز والإطناب والحذف والتكرار ...إلخ ، ومنها كذلك ظاهرة التسجيع ، فاستعملها القرآن استعمالاً خاصاً فيه السمو البياني لفظاً ودلالة .

وقد فتح إنكار الرماني للسجع في القرآن ونفيُه عنه البابَ لتعدد الأقوال من بعده في هذه المسألة على ما سنذكره بعد .

وأبو هلال العسكري عَنْوَن الباب الثامن من الصناعتين بقوله "في ذكر السجع والازدواج" ثم ذكر فيه الفواصل:" وأما ما زوّج بينه بالفواصل فهو كثير مثل قوله تعالى﴿فإذا فرغت فانصب.وإلى ربك فارغب﴾(الشرح: ٧-٨) وقوله سبحانه﴿فأما اليتيم فلا تقهر.وأما السائل فلا تنهر﴾ (الضحى :٩ -١٠) وقوله عز وجل ﴿ والعصر.إن الإنسان لفي خسر﴾ (العصر : ١-٢) "(٥).

وهو في هذا النص لم ينكر السجع في القرآن ، بل لم يثر المسألة ، واستعمل المصطلحين معاً ، ومعهما مصطلح الازدواج ، فكأنه لا يفرق بين الثلاثة في واقع الأمر ، ومما يدل على ذلك أنه استعمل مصطلح الفواصل مكان السجع في غير القرآن الكريم ، قال :" وينبغي أن تكون الفواصل على زنة واحدة وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد فيقع التعادل والتوازن كقول بعضهم : "اصبر على حَرِّ اللقاء، ومضض النزال، وشدة المصاع ، ومداومة المراس ... فلو قال : على حر الحرب ومضض المنازلة لبطل رونق التوازن وذهب حسن التعادل " (٦) .

ولكن المسألة ما لبثت أن دخلت ميدان الكلام مع ما دخل من مسائل الدين،وكان ذلك على يد القاضي أبي بكر الباقلاني الأشعري حيث عقد فصلاً في كتابه " إعجاز القرآن" سماه : "فصل في نفي السجع من القرآن " قال في أوله:" ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه ، وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن ..."(٧).

ثم ذهب الرجل يعرض آراء الفريقين مما يطول نقله هاهنا ، ولكنا نلخص ذلك تلخيصاً لا يخل برأيه .

عرض الباقلاني لآراء من قالوا بأن في القرآن سجعاً ، واستشهدوا بأن الله تعالى ذكر في موضع موسى وهارون في نهاية آية ، وفي موضع آخر ذكر هارون وموسى في نهاية آية ، فقدم وأخر لأجل السجع ، وهؤلاء يبنون رأيهم في ذلك على دلالة المصطلح اللغوية ، لأن السجع هو موالاة الكلام على وزن واحد ، وسجعت الحمامة أي رددت أصواتها ، هذا بعض ما استدلوا به ، ولكن الباقلاني يرد عليهم بقوله : " وهذا الذي يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز، وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب؟وتفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر "(٨) .

ومن حججه التي ساقها كذلك لنفي السجع من القرآن أن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع،وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع في القرآن ، لأن اللفظ فيه يقع تابعاً للمعنى "(٩) .

والذي أوقع الباقلاني في هذا الجدل - فيما نحسب - استحضاره للمعنى اللغوي لمصطلح السجع وارتباطه في ذهنه بسجع الكهان ، ومن ثم ذهب يعيب ظواهر في السجع هي موجودة أيضاً في الفواصل ، ولو أنه جعل اللفظ مختصاً بكلام العرب ، ولفظ الفواصل مختصاً بالقرآن لكان أوفق وأبعد من ذم صورة لغوية كثيرة الاستعمال في لسان العرب والقرآن الكريم لمجرد الشكل الذي وردت عليه لا بالنظر إلى جوهر الاستعمال وجمال البيان، ومصداق ذلك من كلامه قوله راداً على مخالفيه : " ويقال لهم : لو كان الذي في

القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرذولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ... وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقارب الفواصل متداني المقاطع، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود "(١٠) .

وهذا الذي ذكره الباقلاني موجود في القرآن الكريم ، ولا يستطيع أحد أنْ يصفه بما وصف ، بل قد جاء بياناً جميلاً شافياً ، وذلك في سورة المدثر التي بدأت بفواصل الراء حتى الآية العاشرة ، ثم الدال المنصوبة حتى الآية السابعة عشرة ، ثم عادت إلى الراء من الآية الثامنة عشرة حتى السابعة والثلاثين ، في إيقاع سريع وآيات قصار ، ما عدا آية واحدة جاءت في خمسة أسطر ثم انتهت بالراء كذلك هي الآية الحادية والثلاثون ، والآيات بهذا الوصف ينطبق عليها الوصف الذي عابه الباقلاني في السجع ، وهو أمر يثير العجب من عالم كبير مدافع عن إعجاز القرآن.

وكما قلنا فإن الفرق بين المصطلحين فرق شكلي ، وإن أحدهما أكثر ارتباطاً بكلام العرب ، والآخر أكثر ارتباطاً بالقرآن الكريم ، فلا مجال إذن إلى إنكار ما لا مجال لإنكاره أليس السجع ظاهرة لغوية استعملها القرآن كما استعمل غيرها من ظواهر اللغة كالحذف والزيادة والتكرار والإيجاز والإطناب وغير ذلك من صور البيان العربي ؟

وقد ردّ ابن سنان الخفاجي على الذين فرقوا بين السجع والفواصل ، ولم ير رأيهم ، قال :" وأما الفواصل التي في القرآن فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعاً،وفرقوا فقالوا : إن السجع هو

الذي يقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه،والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها ، وقال على بن عيسى الرماني: إن الفواصل بلاغة والسجع عيب ...وهذا غير صحيح ، والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يقال : إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول على ما ذكرنا " (١١).

واستعمل الزمخشري مصطلح الفواصل في تفسيره ، قال في توجيه قوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ (المزمل: ٨) قال: فإن قلت : كيف قيل تبتيلاً مكان تبتلاً ؟ قلت : لأن معنى تبتل بتل نفسه ، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل " (١٢) .

والمراد أن تبتيلاً ليس مصدر الفعل المذكور،وإنما هو مصدر لفعل آخر ، وجيء به مكان المصدر الأصلي لوجود المدّ فيه ليتوافق مع المد في الفواصل السابقة واللاحقة مراعاة للإيقاع المتبع في الفواصل ، والشاهد استعمال الزمخشري لمصطلح الفواصل عوض السجع ورؤوس الآي .

ولخص الفخز الرازي كلام الرماني وغيره ممن ذكرنا وسماه باسم السجع ولم يذكر مصطلح الفاصلة (١٣) .

وعرض السكاكي للفواصل عرضاً موجزاً في مفتاح العلوم فقال:" ومن جهات الحسن الأسجاع ، وهي في النثر كما في القوافي في الشعر ، ومن جهاته الفواصل القرآنية والكلام في ذلك ظاهر " (١٤).

ومضمون كلامه يدل على أنه يعد الفواصل لوناً مميزاً من ألوان السجع ، وقد أدخل مع المصطلحين مصطلحاً ثالثاً رأيناه من قبل عند أبي هلال العسكري وهو مصطلح الازدواج ، وهو" أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز أو متقاربتها ، كقوله عز

اسمه ﴿ إن إلينا إيابَهم . ثم إن علينا حسابَهم﴾ (الغاشية:٢٥ - ٢٦) وقوله ﴿ إن الأبرارَ لفي نعيم . وإن الفجارَ لفي جحيم ﴾ (الانفطار : ١٣ - ١٤) وكقوله ﴿وآتيناهما الكتابَ المستبينَ . وهديناهما الصراطَ المستقيمَ ﴾ (الصافات : ١١٧ _ ١١٨) وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع " (١٥) .

ومن الملاحظ أنه ذكر فاصلة النون مع الميم في " المستبين والمستقيم " لأن الازدواج عنده أعم من السجع والفواصل ، إذ هو توازن الجمل ، والفواصل جزء من ذلك ، وربما قال ذلك أيضاً لتقارب النون مع الميم وتعاقبهما في كثير من الفواصل .

ولم ير ابن الأثير بأساً في استعمال مصطلح السجع في القرآن الكريم ، قال في السجع : "وهو أن يقال:تواطؤ الفاصلتين في الكلام المنثور على حرف واحد ، وقد ذمّه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة ، ولا أرى لذلك وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم،فإنه قد أتى منه بالكثير،حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها ، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور "(١٦).

وسورة الرحمن أكثرهما على فاصلة النون ، ولكن وردت فيها فاصلتا الميم والراء،ولم تخل سورة من سور القرآن من السجع في بعض فواصلها، وشاهدنا أنه استعمل مصطلح السجع وعاب من ردّ ذلك كما أوردناه .

وحازم القرطاجني كذلك يردّ قول الذين عابوا السجع ، قال : " وكيف يُعاب السجع على الإطلاق ؟ وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب ، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود

الأسجاع في كلامهم " (١٧) فهو أولاً يعيب صنيع الذين ذكرناهم ثم يجعل الفواصل مختصة بالقرآن ، والسجع مختصاً بكلام العرب.

ويبدو قول ابن أبي الإصبع مضطرباً في هذا الباب ، فهو في باب "ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام"ينفي السجع من القرآن ، قال : "وكل مقاطع آي الكتاب العزيز لا تخلو من أن تكون أحد هذه الأقسام الأربعة - يعني التصدير والتوشيح والإيغال والتمكين - ولهذا تسمى مقاطعه فواصل لا سجعاً ولا قوافي ، لاختصاص القوافي بالشعر ، والسجع بالمنافرة عن معنى الكلام مأخوذ من سجع الطائر" (١٨) .

ولكنه يعود بعد ذلك فينفي كلامه السابق ويذكر باباً تحت عنوان "باب التسجيع " قال فيه : " وهو أن يتوخى المتكلم تسجيع جمل كلامه ... وذكر له ضربين:ومثل للأول بقوله تعالى﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾(ق:١- ٣) ومثل للثاني بقوله تعالى﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ (الرحمن:١- ٦) (١٩).

والملاحظ أن التسجيع في آيات سورة "ق " لا يظهر إلا بإضافة الآية الرابعة ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيدٌ ﴾ والشاهد نفيه للسجع من القرآن أولاً ثم ذكره ثانياً مع التمثيل له بآيات من القرآن الكريم،والذي أوقعه في هذا الاضطراب - فيما أحسب- أنه ناقل عن غيره ، فكتابه مجموعة ضخمة من النقول والأبواب أخذها عن غيره.

وسماه ابن النقيب " من علماء القرن السابع الهجري " باسم التسجيع كذلك ولم يذكر الفواصل ، وإنما لخص كلام سابقيه في السجع وجاء بشواهد من القرآن والحديث النبوي [٢٠] .

وعرض علي بن محمد الجرجاني صاحب " الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة " عرض للأسجاع ، وذكر المطرّف والمرصع والمتوازي ، وجاء بأكثر شواهده من القرآن الكريم ، ثم قال في المصطلح:" واعلم أن قوماً حصروا اسم السجع في غير القرآن والشعر،وقالوا بدل السجع في القرآن الفواصل..."[٢١] .

واستعمل الخطيب القزويني مصطلح السجع في كلامه عن فواصل القرآن... قال : " ومنه - أي من علوم البيان - السجع ، وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد "[٢٢] ثم عرض لأنواع السجع كالمطرف والمرصّع والمتوازي مع شواهد لكل من ذلك ، ولم يعرض للمصطلح ، إلا أنه قال : " وقيل : إنه لا يقال في القرآن أسجاع ، وإنما يقال فواصل "[٢٣] .

وعرض يحيى بن حمزة العلوي للقضية عرضاً موجزاً فقال:"باب التسجيع " وفيه مذهبان : المذهب الأول جوازه وحسنه ، وهذا هو الذي عوّل عليه علماء أهل البيان ، والحجة على ذلك هي أن كتاب الله تعالى والسنة النبوية وكلام أمير المؤمنين مملوء منه ...والمذهب الثاني استكراهه ، وهذا شيء حكاه ابن الأثير ، ولم أعرف قائله ، ولا وجه له فيما طالعت من كتب البلاغة "[٢٤] .

وعرض الزركشي في البرهان للمسألة بنقل أقوال الباقلاني والرماني ورد ابن سنان عليهما ورأي حازم القرطاجني . ولكنه هو عنون للمبحث عنده بقوله " معرفة الفواصل ورؤوس الآي "

فسماها فواصل كما فعل أكثر الدارسين،وسماها رؤوس الآي تبعاً لاصطلاح الفراء كما ذكرناه قبل" (٢٥) .

ونقل السيوطي قول الداني في المسألة فقال : " وفرق الداني بين الفواصل ورؤوس الآي فقال : الفاصلة هي الكلام المنفصل عما بعده ، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس ، وكذلك الفواصل يكنّ رؤوس آية وغيرها ، وكل رأس آية فاصلة ، وليس كل فاصلة رأس آية " (٢٦) .

وهذا الذي قاله الداني خلاف المصطلح عليه ، ولعله نظر إلى دلالة لفظ الفاصلة لا إلى المصطلح ، فالأصل اللغوي يدل على أي فاصل ... أما المصطلح فهو ما ذكرناه مراراً ويخيل إليّ أنه أراد بالفاصلة هنا بعض صور الوقف كالوقف التام والحسن .

وذكر ابن خلدون المسألة ونفي السجع عن القرآن ، فبعد أن ذكر نوعي النثر وهما المرسل والمسجع ، ذكر أن القرآن خارج عن هذين النوعين ... قال " وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ، وينتهي من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية... ويسمى آخر الآيات منها فواصل،إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع" (٢٧) .

ونعرض أخيراً لقول السيوطي من القدماء في المسألة ، قال :" هل يجوز استعمال السجع في القرآن ؟خلافٌ ، والجمهور على المنع لأن أصله من سجع الطير،فشرف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل " (٢٨) .

أما المحدثون فقد فضلوا استعمال مصطلح الفاصلة مثل كثير من القدماء ، وسنعرض هنا بإيجاز لأقوال بعضهم .

قال الأستاذ أحمد بدوي في كتاب "من بلاغة القرآن " في مبحث الفواصل، قال: "ونعني بها تلك الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن، ولعلها مأخوذة من قوله سبحانه ﴿ كتابٌ فُصِّلتْ آياتُه قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ (فصلت:٣) وربما سميت بذلك لأن بها يتم بيان المعنى ويزداد وضوحاً وجلاءً وقوةً... فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت" [٢٩].

وقد استعمل مصطلح الفواصل كما ثبت عليه الاصطلاح في العصر الحاضر وإن كان في دراسته للفواصل قد ردد كثيراً من مباحث الإتقان في المسألة إن لم تكن كلها ، ولكنه يعود في مبحث آخر فيستعمل السجع مكان الفواصل ، قال: "وأسلوب القرآن منه المسجوع ومنه المرسل ، وهو في كليهما يخالف غالباً ما ألف الناس في السجع والإرسال..." [٣٠].

وقد ذكرت من قبل أن من الأفضل أن يقال إن فواصل القرآن منها المسجوع ومنها المرسل غير المسجوع .

وعرضت الدكتورة عائشة عبد الرحمن للقضية عرضاً موجزاً بنقل أقوال الباقلاني وأبي هلال العسكري وابن الأثير وصاحب الطراز ، ثم خلصت بعد ذلك إلى القول : " وما نزال نجد جفوة تجاه لفظ السجع لطول ما ابتذلته الصنعة اللفظية في الزخرف البديعي في أساليب العصور المتأخرة بعد أن التزمه الكهان في العصر الجاهلي ، ومن ثم نؤثر أن نمضي على تسمية مقاطع الآيات في القرآن بالفواصل ، وهو الذي جرى عليه أكثر المفسرين " [٣١] .

والدكتور مصطفى الصاوي الجويني في عرضه لكتاب " حدائق السحر في دقائق الشعر " للوطواط ، يقول : ويجب ملاحظة أنه لا

يجوز تسمية أواخر آيات القرآن أسجاعاً ، بل يجب تسميتها فواصل ، كما قال الله عز وجل ﴿ كتابٌ فصِّلت آياته ﴾ (فصلت : ٧٣)[٣٢] .

أما تسميتها فواصل لما ورد في الآية فهو بعيد ، والمراد بالتفصيل هنا البيان والتوضيح لا مجرد انفصال الآيات بفواصل ، قال الزمخشري :" فصّلت آياته : مُيزت وجُعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك ..." [٣٣] .

واستعمل الدكتور أحمد الحوفي مصطلح " السجع " في مقاله المطول بعنوان " سجع القرآن فريد " ورأى أن الذين كرهوا لفظ السجع في القرآن الكريم إنما كرهوه لأنهم أرادوا أن يثبتوا مغايرة القرآن لما عهده العرب واقتدروا عليه ...وكأنهم لم ينتبهوا إلى أن السجع القرآني فريد يمتاز بأنه يحقق الملاءمة بين المعنى والأسلوب أروع تحقيق ، ويخضع كل منهما للآخر في إعجاز بيّن لا ينكر.. [٣٤].

وقد منع القدماء تسمية فواصل القرآن قوافي إجماعاً ، ولكن بعض المحدثين يستعمل لفظ "القوافي والتقفية " قاصداً بها الفواصل وكأنه لاحظ كما لاحظنا الشبه القوي بين الظاهرتين،وهو ما جعلنا ننظم كلاً منهما في مبحث خاص في هذا الفصل، ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب الذي يقول : "يتنوع نظام الفواصل والقوافي ، كما تتعدد ألوان الإيقاع الموسيقي ، فهل يجري ذلك على سنن خاصة ويؤدي إلى أهداف مقصودة؟ ... أما نظام الفواصل والقوافي فقد لاحظنا أنه يتنوع في السور المختلفة وقد يتنوع في السورة الواحدة " [٣٥] .

واستعمل الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج مصطلحي التقفية والسجع ، قال :" إن القرآن ليس بشعر، ولا ينبغي أن يوصف شيء منه بأنه من الشعر... لكن هل يمكن أن يحكم بأنه خال أيضاً من التقفية ؟ وأنه ليس فيه شيء من النثر المسجوع ؟ وإذا كان الأمر

كذلك فماذا يقال في آيات كثيرة جداً من سور كثيرة أيضاً من القصار وغير القصار قد ختمت بفواصل متناسبة لا تختلف في شيء عن تقفية السجع ؟"[٣٦].

إنه ينعى على المانعين من القول بالسجع موقفهم غير المبرر في هذه القضية، فهم لم يبينوا بياناً شافياً أصل ذلك المنع ، ولم يعينوا النقطة التي ينفصل عندها السجع عن تناسب الفواصل القرآنية حتى يتضح السبيل ويزول الإبهام ويستقيم الأمر في إطلاق الألفاظ على معانيها الخاصة "[٣٧] .

كان هذا عرضاً لأشهر أقوال دارسي البلاغة في المسألة ، والذي تراه بعد هذا العرض أن المسألة كانت تميل إلى الشكلية أكثر مما ينبغي، إن للقرآن كله فواصل هي نهايات آياته ، ولكن ليس كل القرآن وردت فواصله مسجوعة ، ولا كلها مرسلة ، فالفواصل منها المسجوع ومنها المرسل ، وكلاهما من صور البيان العربي قبل الإسلام وبعده ، ولا مشاحة في استعمال مصطلح دخل علم البلاغة منذ نشأتها،لا مشاحة في استعماله في القرآن الكريم طالما وردت صور منه في هذا الكتاب المعجز، فللقرآن بيانه وأسلوبه المميز،ومنه استعماله للظاهرة موضع الدرس كما استعمل غيرها من صور البيان العربي،وقد ورد السجع كذلك كثيراً في الحديث النبوي، ولو كان مكروهاً ما استعمله النبي ﷺ ، أما استعمال الكهان أو متكلفي الكتاب له بصورة سمجة مرذولة فحالة عارضة لا تقدح في جمال الظاهرة ، كما لو استعمل أحدهم المجاز أو التكرار أو الحذف استعمالاً سمجاً مرذولاً خارجاً عن الذوق ومعهود البيان عند العرب والله الموفق .

***

الهوامش

١. معاني القرآن : ٣/ ٢٢٤.

٢. تفسير الطبري : ١٢/ ٥٦٤ ، ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٣. إعراب ثلاثين سورة من القرآن : ١٠٣ ،مكتبة الزهراء د.ت.

٤. النكت في إعجاز القرآن : ٩٧ ،ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ط دار المعارف .

٥. الصناعتين :٢٨٥.

٦. نفسه :٢٨٩ ،والمصاع : القتال والمجالدة .

٧. إعجاز القرآن :١/ ١٠٦ - ١٠٧ ، مطبوع بهامش الإتقان للسيوطي ،ط٤ الحلبي .

٨. نفسه : ١/ ١٠٨-١٠٩.

٩. نفسه : ١/ ١٠٩.

١٠. نفسه : ١/ ١١١-١١٢.

١١. سر الفصاحة : ١٦٥ ، مكتبة الخانجي ١٤١٢هـ-١٩٩٤م.

١٢. الكشاف : ٤/ ٦٣٩ ، ط دار الريان للتراث .

١٣. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٦٥ .

١٤. مفتاح العلوم:٤٣١ ، ط٢ دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م .

١٥. نفسه : ٤٣١ - ٤٣٢ .

١٦. المثل السائر : ١/ ١٤٤.

١٧. الإتقان : ٢/ ١٢٦.

١٨. بديع القرآن : ٨٩، ط دار نهضة مصر د. ت

١٩. نفسه : ١٠٨ -١٠٩ .

٢٠. انظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان:٢٢٦،طبع منسوباً إلى ابن القيم ، دار الكتب العلمية - بيروت .

٢١. الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة : ٣٠٠- ٣٠١.

٢٢. الإيضاح في علوم البلاغة :٢: ٤٠٢، دار الكتب العلمية - بيروت .
٢٣. نفسه : ٤٠٥ .
٢٤. الطراز : ٣/ ٢٠ ، ط المقتطف .
٢٥. انظر : البرهان في علوم القرآن : ٨٣ وما بعدها .
٢٦. الإتقان : ٢/ ١٢٤ .
٢٧. المقدمة : ٥٣٢ - ٥٣٣ ، ط دار الشعب د . ت .
٢٨. الإتقان : ٢/ ١٢٥ .
٢٩. من بلاغة القرآن : ٧٥ ، دار نهضة مصر د . ت .
٣٠. نفسه : ٢٤٨ .
٣١. الإعجاز البياني للقرآن : ٢٦٨ ط٢ دار المعارف .
٣٢. البلاغة المقارنة : ١١٤ ، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٥م.
٣٣. الكشاف : ٤/ ١٨٤ .
٣٤. سجع القرآن فريد ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية : ٩٥، عدد : ٢٨، رمضان ١٣٩١هـ - نوفمبر ١٩٧١م .
٣٥. التصوير الفني في القرآن : ٩٠ ، ط٨ دار المعارف .
٣٦. السجع وتناسب الفواصل ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية : ٢٠ ، عدد ٣٦ ذو القعدة ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .
٣٧. نفسه : ٢٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

الفواصل القرآنية في ضوء مباحث البلاغة العربية

نقدم في هذا الفصل دراسة للفواصل القرآنية من منظور مباحث البلاغة العربية ذات العلاقة بالفواصل ، ونبدأ فيه بالمباحث الصوتية ، ثم تتدرج المباحث بعد ذلك لتشمل ألواناً متنوعة من البيان العربي ، وسنجد أن ثمة مباحث بلاغية لا علاقة لها بدرس الفواصل ، ولكنا سنجتهد في ذلك ما وسعنا الجهد لنقدم دراسة وافية إن شاء الله تعالى .

هذا ، وأود التنبيه على أنني إذا ذكرت أن شيئاً ما قد روعيت فيه الفاصلة من حذف أو زيادة أو تكرار أو تقديم أو تأخير ...إلخ ، فإنما أريد بالفاصلة المبنى والمعنى معاً ، أو اللفظ والدلالة معاً لا مجرد الجرس الإيقاعي اللفظي في الفاصلة .

ومباحث هذا الفصل على النحو الآتي :

١ - المباحث الصوتية للفواصل .

٢ - التقديم والتأخير في الفواصل .

٣ - الإحلال في الفواصل .

٤ - الاستغناء ببعض الصيغ والتراكيب عن غيرها للفاصلة .

٥ - حذف بعض الألفاظ في الفواصل .

٦ - إئتلاف الفاصلة مع مضمون آيتها .

٧ - الإعراب والفاصلة .

٨ - الفواصل وتصوير اللوحة القرآنية .

❁❁❁

أولاً : المباحث الصوتية للفواصل :

تحدث علماء البلاغة منذ نشأتها عن تلاؤم الحروف في الكلمة وعدم اجتماع بعض الحروف متقاربة المخارج لصعوبة النطق كما في " الهُعْخُع " وهو نوع من النبات وكذلك " مستشزرات " أي مرتفعات،والفعل " تكأكأ " لصعوبة نطقه ...[1]

إن تلاؤم الحروف أمر مستحب ، ولذا فضل البلغاء على الدوام الكلمات السهلة فاستعملوا الطويل مكان العَشَنّق ، والعجوز بدل الحيزبون...ومالت اللغة على الدوام إلى هجر الألفاظ صعبة النطق ، وهذه الصعوبة ترجع إلى عدم تلاؤم الحروف،ومن ثم جاء القرآن مراعياً تلاؤم الحروف ... ومن تلاؤم الأصوات في الكلمة إلى صنع جمل متشابهة النهايات الصوتية فنشأ السجع وعلى أثره الشعر ... وصار البحث يتجه في الدراسة الصوتية لهذه النهايات إلى جوانب متعددة منها نوردها على النحو الآتي :

١ -الحروف المستعملة في الفواصل :

مالت العرب في سجعها وقوافيها إلى استعمال حروف المد واللين والغنة كالنون والميم،وكذلك الحروف الشفوية والأسنانية ، وابتعدوا عن الحروف صعبة النطق أو التي لا تتضح عند الوقف عليها ، وذلك مثل الحاء والخاء والقاف والظاء والضاد...وعلى هذه الأسس كذلك جاءت فواصل القرآن الكريم كما سنوضح بعد .

لقد كثر في الفواصل القرآنية ختمها بالنون مسبوقة بالمد،قال السيوطي:" كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك ، كما قال سيبويه :" إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا

مدّ الصوت ، ويتركونه إذا لم يترنموا وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع "[2] وعبارة سيبويه في الكتاب" أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء ما ينون وما لا ينون ، لأنهم أرادوا مدّ الصوت "[3] .

وثمة فرق بين العبارتين ، إذ يتحدث السيوطي عن الفواصل المختومة بالنون المسبوقة بحروف المدّ ، ويتحدث سيبويه عن إلحاق حروف المد ما ينون وما لا ينون لمدّ الصوت بغرض التطريب كما مثل له بعد ذلك .

إن أكثر الحروف العربية إظهاراً للغنة والترنّم حرفا النون والميم ، ولذا نجدهما أكثر الحروف استعمالاً في فواصل القرآن كما سنورد بعد في الإحصاء والنون"من الأصوات التي يحسن السكوت عليها للغنة التي تحصل في النطق"[1] والميم في التنغيم أخت النون وإن كانت أقل استعمالاً منها في الفواصل، ولذلك يقع التبادل "الإبدال" بينهما في كلام العرب ، ومن ذلك عندهم : مُحلقن ومحلقم في صفة البُسر، والحزون والحزوم لما غلظ من الأرض،وطامه الله على الخير وطانه أي جبله ، وبعير دُهامج ودهانج إذا قارب الخطو ، وأسود قاتم وقاتن ، وبلغ فلان المدى والندى ...إلخ، مما ذكره ابن السكيت في كتاب الإبدال وابن منظور في لسان العرب ، و لذلك نجدهما أكثر حرفين تعاقَبَا في الفواصل كأنهما حرف واحد .

ملاحظات حول إحصاء حروف الفواصل :

أ- نلاحظ أن حرف النون يمثل أكثر من نصف فواصل القرآن ، حيث جاء فاصلة بنسبة ٥١٪ تقريباً،وهذه النتيجة تصديق لكلام سيبويه وغيره ممن لاحظوا ذلك ، وإذا علمنا أن مجمل استعمال حرف النون في القرآن الكريم هو ٢٧٢٦٥ ، فإن نسبة استعماله فاصلة إلى

نسبة استعماله الكلية تكون ١١,٦٧٪ وهي نسبة عالية إذا قورن بحروف أخرى ، أضف إلى ذلك أن التنوين الذي يلحق فواصل بعض السور كالإسراء والكهف ومريم ... هذا التنوين هو نون ساكنة أيضاً وإن كان يتحول بالوقف إلى الألف الممدودة ، وبذا فإن النون والتنوين يفوزان بأكبر نصيب في الفواصل لما فيهما من الغنة الجميلة في السمع ويحق لنا بعد ذلك أن نقول إن عنصر الإيقاع والتنغيم والتطريب يقصد إليه في القرآن قصداً ، وليس مجرد محسنات زخرفية ...

ب- جاء حرف الميم تالياً للنون بنسبة ١٢,٣٨٪ ،يليه الراء بنسبة ١١,٠٤٪ والدال بنسبة ٤,٦٢٪ والملاحظ أن الميم حرف شفوي ، والراء والدال من الحروف التي تنطق باعتماد اللسان مع سقف الحنك أو أصول الأسنان ، وكل هذه الحروف تنطق من الجزء الأمامي لجهاز النطق ، وهذا أمر ملاحظ في الفواصل حيث نلاحظ أن حروف الحنجرة والحلق أقل استعمالاً من الحروف الشفوية والأسنانية ، ولهذا كله علاقة بسهولة النطق والوضوح السمعي .

والمراد بالوضوح السمعي وصول صوت الحرف واضحاً إلى السمع ، حيث إن لكل مجموعة حروف متقاربة المخارج نسبة وضوح سمعي،كما يقول الدكتور رمضان عبد التواب : "وليست كل الأصوات الإنسانية على السواء في نسبة الوضوح السمعي ، فبعضها أوضح من بعض ، ويمكن أن تقسم إلى الأقسام الآتية متدرجة من الانخفاض إلى الارتفاع :

١- المهموسة الانفجارية مثل : ت/ ك/ ب .

٢- المهموسة الاحتكاكية مثل : ش/ س/ ث/ ف .

٣- المهموسة المزدوجة مثل :تْش .

٤- المجهورة الانفجارية مثل :ب/ د/ الجيم القاهرية .

٥-المجهورة الاحتكاكية مثل : ق/ ذ/ ز / الجيم الشامية .

٦- المجهورة المزدوجة مثل : الجيم الفصيحة .

٧- الأصوات الأنفية مثل : م/ ن .

٨- الأصوات التكرارية والجانبية مثل : ر/ ل. (٥)

وعلى هذا الأساس نرى أن الأصوات الأنفية والتكرارية التي لها نسبة وضوح أعلى من غيرها أكثر استعمالاً في الفواصل ، وذلك لتحقيق الوضوح السمعي خصوصاً عند الوقف الذي ربما يضيع معه الحرف الأخير كما يحدث في الكلام العامي كثيراً ، وهذه النتيجة تمثل وجهاً من وجوه الإعجاز التي لا تحصى في هذا الكتاب الخالد .

ج- ثمة حروف نادرة الاستعمال في الفواصل وأقلها استعمالاً على التوالي الجاء (٥ مرات) والضاد (أربع مرات) والشين (ثلاث مرات) والذال (مرتين) والغين (مرة واحدة) أما حرف الخاء فلم يرد فاصلة في القرآن الكريم .

ومن الواضح أن هذه الحروف لا تتمتع بالوضوح السمعي الذي ذكرناه آنفاً للنون والميم والراء واللام ، وكل ذلك يدل على عظيم اهتمام القرآن بالحروف المختارة للفواصل .

د- من الملاحظ أن نسبة شيوع الحروف في الفواصل تتفق بصورة كبيرة مع نسبة شيوع الحروف في قوافي الأشعار العربية والأسجاع عامة ، وهو كشف آخر يوضح أن القرآن وافق استعمال العرب للغة

في كثير من مظاهرها حتى استعمالهم لحروف القوافي والأسجاع ، وقد قسم الدكتور إبراهيم أنيس الحروف في مجيئها روياً إلى :

أ- الكثيرة الشيوع وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار الشعراء ، وهي: (ر ل م ن ب د).

ب- المتوسطة وهي : (ت س ق ك ء ع ح ف ي ج).

ج- القليلة وهي : (ض ط هـ) .

د- النادرة وهي (ذ ث غ خ ش ص ز ظ و) . (٦)

واستعمال النون فاصلة يسبقه في جميع المواضع تقريباً أحد حروف المد الثلاثة: الياء والواو والألف، وذلك في الأسماء والأفعال على حد سواء ، ففي الأفعال يُفضّل الفعل المضارع المرفوع المسند إلى واو الجماعة على وزن (يفعلون أو تفعلون) يفضل في الفواصل عادة ، وفي الأسماء يفضل اسم الفاعل المجموع جمعاً سالماً مرفوعاً أو مجروراً أو منصوباً(فاعلون أو فاعلين) من الثلاثي، ونادراً ما يأتي من الرباعي والخماسي والسداسي وهو بذلك يحقق المدّ ويختم بالنون كالمضارع المذكور تماماً ، وقد يعاقبه اسم المفعول ويحقق الإيقاع نفسه

وثمة أسماء ليست من هذا القبيل، ولكن القرآن يختارها بدقة بالغة لإجراء الفاصلة بالصورة السابقة نفسها، وهي كلمات في بنيتها المد والنون ، أي ليسا شيئاً طارئاً عليها كالمضارع المذكور أو أسماء الفاعلين أو المفعولين، ومن ذلك ألفاظ مثل: عيون وحين ومبين وأمين ومجنون... إلخ، ومثاله من القرآن قوله تعالى﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ. كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ (الدخان : ٥١-٥٥) .

فالكلمات ذات المد والنون في بنيتها (أمين وعيون وعِين) تعطي الإيقاع نفسه الذي تعطيه أسماء الفاعلين المجموعة جمعاً سالماً (متقابلين وآمنين) ولذا وقعت كلها فواصل مسجّعة كما نرى ، وهو كثير في القرآن الكريم .

وتتعاقب الياء والواو قبل النون في الفواصل كثيراً ، بل هو الغالب على فواصل القرآن ، في حين لا يحدث التعاقب بين إحداهما وبين الألف إلا نادراً،ولم أره إلا في بضعة مواضع ، وهو أمر طبيعي لقرب الواو من الياء وبعدهما معاً من الألف ، يقول ابن جني: " إن بين الياء والواو قرباً ونسباً ليس بينهما وبين الألف ، ألا تراها تثبت في الوقف في المكان الذي تحذفان فيه، وذلك قولك : هذا زيد ، ومررت بزيد ، ثم تقول : ضربت زيداً وتراهما تجتمعان في القصيدة الواحدة ردفين في نحو قول امرئ القيس :

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني   جرداءُ معروقة اللَّحيين سُرْحُوبُ

ثم قال فيها :

كالدَّلْو بُتَّتْ عُراها وهي مُثْقَلة   وخانها وَذَمٌ منها وتكريبُ[٧]"

وهذا الذي لاحظه ابن جني موجود كثيراً في الفواصل النونية وغير النونية ، ومن شواهده في الفواصل قوله تعالى في فرعون ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ . وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ . ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود : ٩٨ - ١٠٠) ثم تستمر الفواصل بعد ذلك على المعاقبة بين الواو والياء على التوالي وهي " تتبيب وشديد ومشهود ومعدود وسعيد وشهيق ويريد ومجذوذ ومنقوص... " ولا نكاد نجد في القرآن تعاقباً بين الواو أو الياء وبين

الألف في حروف المد التي تسبق حرف الفاصلة إلا في بضع فواصل وأوضح مثال لذلك سورة الرحمن ، حيث إن الفاصلة الغالبة فيها الفعل" تكذبان " المسند إلى ألف الاثنين والمراد بها الثقلان الإنس والجن ، ولذلك جاءت كل الفواصل مناسبة لهذه الألف مثل " الرحمن والقرآن والإنسان والبيان وحسبان ويسجدان ....الخ ، حتى الفواصل غير النونية روعي فيها وجود هذه الألف مثل"الأكمام والفخار ونار..." كل ذلك لتحقيق الإيقاع الجميل المؤثر،وقوة الإيقاع والنظم لا ريب موصل قوي للمعنى ، فالأمران إذن -المبنى والمعنى- لا ينفصلان في أسلوب القرآن الكريم ، أما الفاصلة الوحيدة التي وردت ياء في هذه السورة فهي ﴿ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين ﴾(١٧) وقد وردت ياءً ساكنة غير ممدودة لأنها لا تعاقب الألف إلا نادراً كما قلنا ، وهذا أيضاً لون من ألوان الإعجاز في اختيار حروف الفواصل بدقة عجيبة.

٢- الحروف المتقاربة المخارج في الفواصل :

الفواصل إما مسجوعة وإما مرسلة كما ذكرنا من قبل،والمرسلة منها تكثر فيها الحروف المتقاربة مع وجود المد قبل حرف الفاصلة ، مما يجعل المدّ والتقارب الصوتي يقومان مقام التسجيع ويعطيان النغم الإيقاعي نفسه المتحقق بالتسجيع ، وقد لاحظ دارسو البلاغة هذا الأمر ، وقسم ابن سنان الفواصل إلى :

أ- متماثلة : ومثالها ﴿ والطور.وكتاب مسطور.في رَقّ منشور ﴾ (الطور: ١-٣) وقوله تعالى﴿ طه . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى . تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ (طه:١-٤) .

ب- المتقاربة في الحروف ، ومنها ﴿الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ق والقرآن المجيد. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شئ عجيب ﴾ (ق:١-٢) ولا يسمى هذا سجعاً لأن السجع ما كانت حروفه متماثلة "(٨).

فالميم والنون حرفان متقاربان ولذا يتعاقبان كثيراً في الفواصل، أما إذا لم يكن ثمة تسجيع فإن وزن الكلمات المختارة ووجود المدّ فيها وتقارب حروف الفواصل ... كل ذلك يقوم مقام التسجيع في إحداث الأثر الإيقاعي الجميل ، وقد علل الرماني ذلك بقوله :"وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان مايدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة "(٩).

٣- الوقف على الفواصل :

اللغة العربية لغة معربة ، أي تظهر على كلماتها المعربة علامة إعراب في نهاية الكلمة أو في بنيتها الداخلية كالمعرب بالحروف ، حتى الأسماء المبنية تلزم صورة واحدة مشابهة لإحدى الصور الثلاث للإعراب أو تكون مشابهة لحالة السكون كالاسم المقصور ، ولكن ثمة حالة لا يظهر فيها ذلك الإعراب في العربية وهي حالة الوقف بالسكون،حيث تتحول الحركة إلى سكون بالوقف ، ويكون الوقف بالسكون عادة على المرفوع والمجرور والمنصوب غير المنون ، يقول السيوطي :" مبني الفواصل على الوقف ، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس ،كقوله تعالى ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ (الصافات :١١) مع قوله ﴿ عذابٌ واصبٌ﴾ (٩) و﴿ شهاب ثاقب ﴾(١٠) وقوله ﴿ بماء منهمر﴾ (القمر:١١)مع ﴿ قد قُدر﴾ (١٢) ﴿ وسَحَر)٣٤﴾ و﴿مستقر﴾ (٣٨)... "(١٠).

إن إجراء التسجيع في نهايات الجمل لا يتم إلا بتسكين أواخرها ، أي بالوقف عليها ، والوقف قد يأتي وسط الآية لضرورة النفَس ، ولكنه يكون واجباً عند نهاية كل آية ، ويعرفه السيوطي بقوله: "الوقف عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمناً يُتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة لا بنيّة الإعراض ، ويكون في رؤوس الآي وأوسطها، ولا يتأتى في وسط الكلمة ، ولا فيما اتصل رسماً "(١١)

وقد كان النبي ﷺ يقف على رؤوس الآي كما ورد في صفة قراءته ﷺ وفي سنن الترمذي عن أم المؤمنين أم سلمة قالت:كان رسول الله ﷺ يقطّع قراءته ، يقول : ﴿الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾ ثم يقف ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ثم يقف"(١٢) وفي رواية أبي داود أنها ذكرت قراءة رسول الله ﷺ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم.الحمد لله رب العالمين.الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين﴾ يقطّع قراءته آية آية"(١٣) فهذه هي السنة في القراءة ، وقد عمل بها أكثر القراء وأكدوا على الوقف على رؤوس الآي ، وإن كان كثير من القراء المعاصرين يخلّ بهذا الأدب النبوي في القراءة ، هذا مع العلم بأن القراءة سنة متبعة في كل شئونها .

فقراءة النبي ﷺ التي تلقاها عن جبريل عليه السلام كانت بالوقف على رؤوس الآي ، لأن الإيقاع المتحقق في الفواصل المسجعة وغير المسجعة يتطلب الوقف بالسكون على الفواصل .

ولقد كان النبي ﷺ يقصد إلى التطريب قصداً في بعض الأحيان ولعل ذلك كان يرتبط بالحالة النفسية من فرح بفتح أو نصر ... وفي يوم فتح مكة - أعظم انتصارات المسلمين بعد بدر - قرأ النبي ﷺ سورة الفتح بصوت مطرب جميل كما ورد في صحيح البخاري عن معاوية بن قرة المزني عن عبد الله بن مغفل المزني قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الفتح على ناقة له يقرأ سورة الفتح قال فرجّع فيها ، قال :

ثم قرأ معاوية يحكى قراءة ابن مغفل وقال : لولا أن يجتمع الناس عليكم لرجّعت كما رجّع ابن مغفل يحكي النبي ﷺ فقلت لمعاوية : كيف كان ترجيعه ؟ قال : آآآ ثلاث مرات" (١٤).

والتحقق من كيفية الترجيع هذه اليوم غير ممكن عملياً،ولكن شاهدنا هنا وجود التطريب بسورة الفتح ذات الفواصل المبنية على حرف المد الناشئ من الوقف على المنصوب المنون، ذلك التطريب أو الترجيع الذي كان كافياً أن يجتمع له الناس بمجرد سماعه .

وإذا لاحظنا فواصل سورة القمر - على سبيل المثال - فسوف نجد أن الراء هي حرف الفاصلة في كل آياتها ، ويسبق الراء حرف متحرك لا حرف مدّ ، ولولا الوقف بالسكون على الراء ما تحقق ذلك الإيقاع الجميل في فواصل السورة ، فهي تبدأ بالراء المضمومة غير المنونة في (القمر) ثم تليها ثلاث فواصل براء مرفوعة منونة (مستمر ومستقر ومزدجر) ثم راء مكسورة منونة في (نكر) ثم في الآية التاسعة (وازدجر) الراء مفتوحة"مبنية على الفتح"وهكذا تمضي الفواصل بين الرفع والجر والنصب أو البناء على الفتح ، ولكن الوقف عليها بالسكون يوحّد إيقاعها الجميل المتكرر ، وليس الوقف فحسب ، بل إن ثمة حروفاً تحذف لإجراء ذلك الإيقاع كحذف ياء المتكلم في ﴿فكيف كان عذابي ونذرِ﴾ (١٨) والأصل (ونذري) وسنذكر الحذف عما قريب .

٤ - حذف حرف لأجل الفاصلة :

يكثر في الفواصل حذف الحرف الأخير من الكلمة ثم الوقف بالسكون على الحرف الأخير، وذلك لمراعاة الإيقاع في الفواصل ، وأكثر الحروف تعرضاً للحذف ياء المتكلم ويعوض عنها بالكسرة ثم

يوقف على الحرف الذي قبلها بالسكون فلا تظهر الكسرة كذلك،وشواهده كثيرة نذكر منها:

أ- ﴿ والليل إذا يسر ﴾ (الفجر: ٤) ويسر : فعل مضارع مرفوع وحذفت ياؤه تخفيفاً وموافقة للفواصل السابقة واللاحقة وهي " الفجر وعشر والوتر وحِجْر " .

ب-﴿بل لـمّا يذوقوا عذابِ﴾(ص:٨)والأصل عذابي،وحذفت الياء لموافقة الفواصل بعدها " الوهاب والأسباب والأحزاب" ومثلها ﴿ فحقَّ عقابِ ﴾ (١٥) .

ج-﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (الشعراء : ١٢-١٤) فقد حذفت ياء المتكلم من يكذبون ويقتلون وعوض عنها بالكسرة،ولكن الوقف بالسكون على نون الوقاية أخفى حركة الكسرة فحدث التوافق الإيقاعي مع الفواصل السابقة واللاحقة .

د- ﴿ عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعالِ ﴾(الرعد :٩) وقبلها فاصلة " بمقدار " وبعدها " بالنهار"واللام تعاقب الراء في الفواصل أحياناً .

وقد يكون الحذف طبيعياً وفق القواعد الجارية في العربية ، كحذف ياء المنقوص مثل﴿وإذا أراد اللهُ بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من والٍ﴾ (الرعد ١١) ويوقف علي "والٍ" التي أُوثرت على "وليّ" كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم، يوقف عليها بالسكون فيحدث التسجيع مع ما بعدها " الثقال والمحال وضلال والآصال " على التوالي .

٥- زيادة حرف لأجل الفاصلة :

وكما يحذف الحرف لأجل الفاصلة تزاد بعض الحروف كذلك للفاصلة إذا تطلب السياق ذلك،ومن شواهده :

أ-﴿وإذْ زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونَا﴾ (الأحزاب : ١٠)

ب-﴿وقالوا ربنّا إنّا أطعنا سادتَنا وكبراءَنا فأضلونا السبيلَا﴾ (الأحزاب:٦٨)

إن فواصل سورة الأحزاب كلها بألف مد ناشئ عن الوقف على تنوين النكرة ، ما عدا الآيتين المذكورتين فالفاصلة فيهما معرفة،وآية أخرى فاصلتها (السبيلَ) ولأجل إجراء الفاصلة في الآيتين المذكورتين زيدت الألف في المعرف بالألف واللام ، وهو غير معتاد في النثر العربي ، ولكن القرآن كما نذكر مراراً يراعي الفاصلة تماماً،ويغير ويزيد ويحذف لأجلها .

ج- زيادة هاء السكت في الآيات الآتية ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ (الحاقة :١٩-٢٠) وفي السورة نفسها ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾(٢٥-٢٩) فهذه الآيات جميعها ما عدا فاصلة " القاضية " زيدت فيها هاء السكت الساكنة لتتوافق بالتسجيع مع التاء التي تتحول بالوقف إلى هاء .

٦- لزوم ما لايلزم :

من الظواهر الإيقاعية المعروفة في القوافي ما أسماه العروضيون لزوم ما لايلزم ، أو الاستلزام وهو يدل - إن عري عن التكلف -

على عبقرية الشاعر وتمكنه من اللغة،وقد ذكره ابن جني ومثل له بشواهد كثيرة منها :

وحُسّدٍ أَوْشَلَتْ من حِظَاظها   على أحاسي الغيظ واكتظاظها

حيث التزم الشاعر فيها - وهي ستة أبيات - التزم التصريع والتقفية بالظاء الأولى وما بعدها مما لا يلزمه تكراره ، قال ابن جني: " فالتزم في جميعها ما تراه من الظاء الأولى مع كون الرويّ ظاء ، على عزة ذلك مفرداً من الظاء الأول، فكيف به إذا انضم إليه ظاء قبله ؟ وقلما رأيت في قوة الشاعر مثل هذا" (١٥) .

إنه لون موسيقي نادر في القوافي ، والقرآن نازل بلسان عربي مبين وهو يأخذ من صوره الإيقاعية ما يكون مناسباً لإحداث الإيقاع الجميل المؤثر،ولذا ورد فيه هذا اللون الإيقاعي على قلة،قال السيوطي فيه:"وهو أن يلتزم في الشعر أو النثر حرفاً أو حرفين فصاعداً قبل الرويّ بشرط عدم الكلفة " (١٦) وذكره ابن أبي الإصبع كذلك تحت عنوان " الالتزام "(١٧) .

وهذا اللون قليل في القرآن ، ولكنه في المواضع التي ورد فيها جاء دالاً على بلاغة القرآن العليا وهو أنواع :

أ- الالتزام بحرف واحد قبل الفاصلة ، ومنه :

-﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾(الضحى:٩-١٠)

-﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:١-٤).

-﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾(التكوير :١٥-١٦).

-﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾(الانشقاق:١٧-١٨).

ب-الالتزام بحرفين ، ومنه ﴿ والطورِ . وكتابٍ مسطورٍ ﴾ (الطور:١-٢).

-﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ (القلم:٢-٣)

-﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾(القيامة:٢٦-٢٩) ومنه كذلك سورة الناس كلها .

ج-الالتزام بثلاثة أحرف ، ومنه ﴿ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾(الأعراف:٢٠١-٢٠٢)والفعل يقصرون لم يستعمل فاصلة في القرآن إلا في هذا الموضع . وتحقق الجمال الصوتي به ملمح ظاهر ، مع حاجة المعنى والسياق إليه .

وهذا الالتزام إذا أضفنا إليه الالتزام بالفاصلة ذاتها فيصير الالتزام بثلاثة أحرف في الحقيقة التزاماً بأربعة مثل " مبصرون ويقصرون" وهذا يدل على مبلغ اهتمام القرآن بالفواصل بنية ودلالة .

٧- تغيير بنية الكلمة لأجل الإيقاع :

لعل من أوضح صور اهتمام القرآن بإيقاع الفاصلة تغييره لبنية بعض الكلمات لإجراء التسجيع بها بعد التغيير ، وهو - على قلته - دليل على ذلك الاهتمام ، وهو ظاهرة نادرة معروفة في العربية ، ومنها قول لبيد :

درس المنا بمتالع فأبانِ   فتقادمت بالحبس فالسوبانِ

المنا :المنازل ، وقول الحطيئة :

فيه الجياد وفيه كل سابغة   جدلاء محكمة من نسج سلاّمِ

أي سليمان [١٨] .

وضرورة القافية مع الوزن قد تلجئ الشاعر إلى الخطأ المعنوي كذلك ، ومنه ما ذكره ابن قتيبة من قول لبيد :

نحن بنو أم البنين الأربعة

قال ابن الكلبي: هم خمسة فجعلهم أربعة للقافية، وقال آخر يصف إبلاً :

صبحن من كاظمة الخص الخرب

يحملن عباس بن عبد المطلب

أراد عبد الله بن عباس فذكر أباه مكانه [١٩] وهذا كله يدل على حرص العرب على الإيقاع وحبهم له .

ومن شواهد ذلك في القرآن :

أ-﴿والتين والزيتون.وطور سينين.وهذا البلد الأمين﴾(التين: ١-٣) إن طور سينين هو طور سيناءَ ،وهو نفسه الوارد في قوله تعالى﴿وشجرةً تخرجُ من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾ (المؤمنون: ٢٠) ولكن اللفظ في سورة التين جاء فاصلة مسبوقة ومتبعة بفواصل النون المسبوقة بحرف المد،ولهذا غُيرت بنية الكلمة من سيناء إلى سينين لموافقة الإيقاع ، قال ابن خالويه : "والطور: الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، والسينين: الحسن ، وقرأ عمر رضي الله عنه " وطور سيناء"[٢٠] وقراءة عمر تؤكد أن طور سينين هو طور سيناء ،كذلك قال العكبري عنه إنه لغة في سيناء "[٢١]

ب- ﴿قد أفلح من زكاها.وقد خاب من دسّاها﴾(الشمس : ٩- ١٠) قال ابن خالويه:" دَسَّى فعل ماض وهو صلة من ، والألف في دسّى مبدلة من سين كراهية اجتماع ثلاث سينات،والأصل من دسّسها أي أخفاها " [٢٢] ومثله قال الراغب في المفردات وجعلها مثل

تظنيت من تظننت[٢٣] ولكن اللفظ إذا جاء على الأصل فقدت الفواصل جرسها الإيقاعي الجميل المتكرر في نهايات آيات السورة وهو الضمير (ها) .

ج-﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ . أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾(الصافات:١٢٣-١٣٠) وقد أوردت قصته كاملة لأن نظام إيراد القصص في سورة الصافات كله على هذا النمط ، فبعد ذكر نوح قال تعالى عنه﴿ سلامٌ على نوح في العالمين﴾(٧٩) وبعد ذكر إبراهيم قال ﴿ سلامٌ على إبراهيم﴾ (١٠٩)وبعد ذكر موسى وهارون قال﴿ سلامٌ على موسى وهارون﴾ (١٢٠) ولم يذكر ذلك مع لوط ويونس عليهما السلام .

وعلى ذلك فإن إلياس عندنا هو إل ياسين نفسه المذكور في آخر القصة ولكن غُيّر بناء الكلمة ليناسب الفواصل ، قال الزمخشري: " ولعل لزيادة الياء والنون في السريانية معنى "[٢٤] ومعنى ذلك أنه يعد اللفظ الأول هو الثاني عينه مع زيادة الياء والنون ، وهو ما نرجحه كذلك ، والله أعلم .

وقد تعددت أقوال أبي حيان والمفسرين في البحر المحيط في إل ياسين لمعالجة هذا التغيير في بنية الكلمة [٢٥] ولكننا نرجح رغم ذلك أن إلياس هو إلياسين ، والسلام واقع عليه هو كما حدث مع إخوانه من المرسلين الواردة قصصهم في السورة نفسها ، ولكن ذلك إنما حدث لأجل الفاصلة، والله أعلم .

***

الهوامش

١-انظر : الإيضاح :٥-٦،والإشارات والتنبيهات:٤-٥.
٢-الإتقان :٢/ ١٣٤.
٣-الكتاب:٢/ ٢٠٤ط٢، مكتبة الخانجي ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
٤-د/ إبراهيم السامرائي ،فقه اللغة المقارن:١٢٦.
٥-المدخل إلى علم اللغة :١٠١-١٠٢، مكتبة الخانجي ١٩٨٠م-١٤٠٠هـ.
٦-انظر: موسيقى الشعر : ٢٤٨.
٧-سر صناعة الإعراب : ١/ ٢٣، القاهرة ١٩٥٤م.
٨-سر الفصاحة :١٦٢.
٩-النكت في إعجاز القرآن :٩٨.
١٠-الإتقان : ٢/ ١٣٤.
١١-١٠-نفسه :١/ ١١٥.
١٢-سنن الترمذي :٥/ ١٨٥ح(٢٩٢٧)
١٣-سنن أبي داود :٤/ ٣٦ح(٤٠٠١)
١٤-فتح الباري :١٣/ ٥٢١ح(٧٥٤٠)
١٥-الخصائص :٢/ ٢٣٦-٢٣٧،
١٦-الإتقان :٢/ ١٣٣.
١٧-بديع القرآن :٢٢٧.
١٨-إعراب ثلاثين سورة :١٢٨.
١٩-انظر:المزهر:١/ ١٨٩، ومتالع وأبان والحبس والسوبان أسماء جبال وأماكن.
٢٠-تأويل مشكل القرآن : ٢٠٠-٢٠١.
٢١-انظر :إملاء ما مَنّ به الرحمن :٥٨٥.
٢٢-إعراب ثلاثين سورة :١٠٢.
٢٣-المفردات :١٦٩،ط دار المعرفة ، بيروت د.ت.
٢٤-الكشاف :٤/ ٦٠.
٢٥-انظر : البحر المحيط :٩/ ١٢٢ط دار الفكر - بيروت.

ثانياً : التقديم والتأخير في الفواصل القرآنية

التقديم والتأخير ظاهرة تطبع الجملة العربية في كثير من صورها، ولا غرو ، فهو مجال إبداع المبدعين من شعراء وناثرين ، وهو مجال خصب لبلاغة القول تتفاوت فيه القرائح ، والشعر يعتمد أساساً في جماله على الأوزان والقوافي في بناء هيكل القصيدة ثم على التقديم والتأخير مع صور بيانية أخرى ، وعن أهمية التقديم والتأخير يقول عبد القاهر : "هو باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرف بعيد الغاية ، لا يزال يفترّ لك عن بديعة،ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدّم فيه شيء ، وحُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان ..." [١].

والتقديم والتأخير عند العرب مرتبطان بفن القول ، أي بالكلام ذي الطبيعة الفنية كالشعر والنثر الفني في ألوانه المتعددة ، والضابط للتقديم والتأخير عندهم هو الإعراب الذي يحفظ لكل لفظ موقعه في بناء الجملة سواء ورد مقدماً أم مؤخراً،وفي جملة" ضرب عبد الله زيداً"يقول سيبويه: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : ضرب زيداً عبد الله ، لأنك إنما أردت به مقدماً ما أردت به مؤخراً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخراً في اللفظ فمن ثم كان حدّ اللفظ أن يكون مقدماً،وهو عربي جيد كثير ، كأنهم يقدمون الذي بيانه لهم أهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" [٢].

ونستطيع أن نضيف مطمئنين إلى هذه الأهمية التي صارت من بعد مبرراً لكل تقديم وتأخير ، نضيف إليها الاهتمام ببناء الجملة من

حيث الإيقاع الذي يحدثه التقديم والتأخير أيضاً ، كما تفصّله دراستنا هذه .

والقرآن نازل بلغة العرب وعلى مذاهبهم وسننهم في استعمال لغتهم، وقد ورد فيه التقديم والتأخير كثيراً ، وصرفه النحاة والبلاغيون عادة إلى الاهتمام والاختصاص ، يقول عبد القاهر- وهو أكثر البلاغيين إفادة من جماليات النحو - يقول : "اعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه - أي التقديم والتأخير - شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام...ثم ذكر قول سيبويه المتقدم"(٣).

وليس التقديم والتأخير عملية لفظية للتلاعب بالكلام، إنه عملية لفظية دلالية في آنٍ معاً ، فمتى تقدم لفظ كان حقه التأخير ، وصدر ذلك ممن يُعرف عنه الاجتهاد في صياغة البيان ، وجب تحليل الكلام لمعرفة الجمال الفني الذي يحدثه ذلك المبدع بالتقديم والتأخير، ولهذا ما أنكر عبد القاهر أن يكون اهتمامهم بالتقديم والتأخير لأجل سجعة أو قافية ، قال رحمه الله: "واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض،وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه،ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى..."(٤).

وينظر عبد القاهر في قولهم : قتل الخارجيَّ زيدٌ ، فيرى أن المهم عند الناس قتل الخارجي لأنه عاث في الأرض فساداً ولا يهمهم من قتله، فحين يقتل يقدم ذكر الخارجي على قاتله لأن السامع إنما يهمه أولاً سماع نبأ قتل الخارجي، أما إذا قلنا : قتل زيد رجلاً ، وقدمنا ذكر زيد فلأن زيداً هذا رجل لم يعرف الناس منه أنه يقتل ، وليس ذلك

منه عادة ولا له به قدرة ، فيكون ذكره على الأصل هنا لموضع الغرابة والندرة في حدوث ذلك من زيد...."(٥).

هذا ما يبحثه النحاة والبلاغيون عادة على مستوى الجملة الواحدة ومن مشكلات النحو والبلاغة عندنا قديماً أن أثرهما لم يكن يتجاوز كثيراً حدود الجملة الواحدة ...لم يكن الحديث عن النص كاملاً وفق نظرية محددة المعالم أمراً واضحاً عند كثير من النحاة والبلاغيين ، وهو ما تداركته الأسلوبية الحديثة ، غير أنا نذكر أنهم وضعوا المفاتيح واللبنات الأولى للتعامل مع النصوص بوصفها وحدات مجزأة أولاً ، وكان ينقصهم الخطوة التالية التي تنظر إلى النص كاملاً... ومن ثم نضيف ها هنا أن الاهتمام في جملة " قتل الخارجيَّ زيد " هو على ما قدمه عبد القاهر،غير أن الجملة حين توضع في نص فنيّ مع غيرها ستبحث في إطار أوسع تظهر فيه أثار الإيقاع وخصائص الأسلوب... إلخ ، وهو ما نحاول استخلاصه على مستوى النص القرآني كله .

فالتقديم والتأخير إذن عملية فنية تحتاج إلى خبرة بفن القول،وترتبط عادة بالمستويات العليا من نصوص اللغة ، ولذا نلاحظ أنه كلما قلَّ المستوى الثقافي للمتكلم مالت لغته إلى الترتيب المألوف للجملة اسمية أو فعلية،ويتضح ذلك كثيراً في لغة الصحافة اليومية واللهجات المعاصرة ، وهي تميل إلى نمط الجملة الثابتة بوضوح ، فإذا ما نظرنا في الكلام الفصيح، وأعلاه القرآن الكريم ، ثم الحديث النبوي ،ثم أشعار العرب ونثرها الفني ، كل ذلك ستظهر فيه بلاغة التقديم والتأخير، ولولا وجوده لضاقت اللغة على أهلها ، وذهب كثير من جميل القول وعذب البيان،غير أنهم جعلوا الإعراب ميزاناً لهذا كله ،قال ابن يعيش :" ولو اقتصر البيان على حفظ المرتبة

فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاق المذهب،ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب "(٦) .

والمحدثون يدرسون التقديم والتأخير تحت مصطلح Permutation بمعنى إعادة الترتيب ، وما قدموه في هذا الميدان لا يعدو كثيراً ما قدمه التراث العربي الضخم في البلاغة والنحو ، غير أن المصطلح يحكمه إطار نظري عام تندرج تحته الجزئيات ، وهو ما لم يتوفر لبلاغتنا أو نحونا في معظمها .

وقد أحصى الرماني الوجوه التي يحسن فيها التقديم على التأخير فوجدها ستةً على النحو الآتي :

١ - أن تكون الحاجة إلى ذكره - أي المقدم - أشد ، وإلى العلم به أهم كما قال سيبويه "وإن كانا جميعاً يهمانهم ...".

٢ - أن يكون التأخير أليق بما اتصل من الكلام كقوله تعالى﴿وتغشى وجوهَهم النارُ ﴾(إبراهيم: ٥٠) فهذا أليق بما بعده وهو قوله ﴿إن اللهَ سريعُ الحساب﴾(وهو أشكل بما قبله أيضاً ،لأن قبله ﴿مقرّنين في الأصفاد ﴾

٣- أن يكون الأول أعرف من الثاني وذلك في الأخبار والصفات فالأخبار كقولك : زيد قائم ...والصفات كقولك :زيد الطويل ، فزيد أعرف من الطويل .

٤- تقديم الحروف التي لها صدر الكلام ،كحروف الاستفهام والنفي .

٥ - تقديم الكل على جزئياته .

٦ - تقديم الدليل على المدلول (٧).

والفاصلة القرآنية جزء من تركيب الآية أو جزء من تركيب الجملة الأخيرة في الآيات الطوال ، وهي تأخذ من سنن العربية في التقديم والتأخير بنصيب وافر ، بل إن التقديم والتأخير أكثر صور البيان الجميل وروداً في الفواصل ، لأنها تحتاج إلى الإيقاع ، وبناء الجملة لفظاً ودلالةً يحتاج إلى التقديم والتأخير للتأثير في المتلقي حين يكونُ الكلام ذا طبيعة خاصة .

وسنذكر هاهنا صوراً من التقديم والتأخير في الفواصل :

١ - تقديم المفعول على الفاعل :

إن المعتاد في العربية أن يقدم الفاعل على المفعول في دَرَج الكلام ، إلا إذا وجد مانع لفظي مما حدده النحاة كأن يكون المفعول ضميراً متصلاً إذا تأخر وجب اتصاله أو يكون مما له حق صدارة الكلام كأسماء الشرط والاستفهام وغير ذلك مما تفصله كتب النحو عادة ، لكن أن يأتي تقديم المفعول بغير ضرورة نحوية فلا بد أن يكون لذلك ملمح دلالي استدعاه المقام وتركيب الجملة ، ومن شواهده في الفواصل :

-﴿ ولقد جاءَ آلَ فرعونَ النذرُ﴾(القمر: ٤١) حيث قدم آل فرعون على الفاعل "النذر" والفواصل في سورة القمر كلها راء مسبوقة بحرف متحرك، وفي تقديم المفعول إفادة اختصاصه بتلك النذر دون غيره في ذلك الزمان، وهو ما يؤيده مجموع قصص موسى وفرعون في القرآن الكريم .

ولعلنا نلحظ كذلك أن آل فرعون متقدمون في الزمان على النذر التي جاءهم بها موسى ، فقدم ما هو متقدم في الزمان كذلك،وليس

ذلك بقاعدة ، وإنما نبحث كل سياق على حدة ، إذ المعنى النهائي لا بد أن يكون نتيجة الدرس السياقي بكل خطواته .

-﴿والمؤتفكةَ أهوى ﴾(النجم:٥٣)المؤتفكة قرى لوط عليه السلام ، وقدم ذكرها على الفعل والفاعل ، وجعل الفاعل ضميراً مستتراً ليخلص الفعل المعتل الآخر بالألف إلى الفاصلة فيتحقق الإيقاع بالتسجيع مع ما قبله وما بعده من الفواصل .

-﴿ سرابيلُهم من قطرانٍ وتغشى وجوهَهم النارُ﴾ (إبراهيم:٥٠) والفواصل قبله وبعده (القهار،الأصفاد، النار،الحساب) على التوالي، ووجود حرف المد قبل الفاصلة أساس في أكثر فواصل القرآن الكريم، والنصف الأخير من سورة إبراهيم أكثره على المد بالألف قبل الفاصلة ، ومع هذا نلحظ في تقديم الوجوه تخصيصاً بشدة العذاب ، إذ من المعلوم أن النار تغشى كل أجسام الكفار ، ولكن ذكر الوجه وهو محل التحية والإكرام ، ومحل الكبر والغرور في الدنيا ذكره وتقديمه على هذه الصورة يوحي باستحقاقه أشد العذاب ، والله أعلم .

ويتكرر في القرآن تقديم المفعول به بلفظ "أنفسهم" على الفعل والفاعل وقد ورد ذلك في اثني عشر موضعاً في القرآن الكريم ، وله من حيث وجود كان أو عدمها صورتان ، الأولى وجودها في التركيب نحو :

-﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون﴾(البقرة:٥٧).

-﴿ساء مثلاً القومُ الذين كذبوا بآياتنا وأنفسَهم كانوا يظلمون﴾ (الأعراف :١٧٧) .

والثانية ورود التركيب بدون كان مثل :

-﴿وما ظلمهم اللهُ ولكن أنفسَهم يظلمون﴾(آل عمران :١١٧).

-﴿لا يستطيعون نصرَكم ولا أنفسَهم ينصرون﴾ (الأعراف: ١٩٧) والتركيب بدون كان يتحدث عن أحوال حاضرة ومتكررة على مرّ الزمان،ونلاحظ أن أكثر المواضع التي يرد فيها هذا التركيب - على تنوعه - تسبق نفي وقوع الظلم على هؤلاء من الله تعالى، وورد بعضها بغير ذلك النفي ، ولكل سياق تفرّده بلا شك ، لكن يعنينا هنا تقدم المفعول في هذه التراكيب جميعاً،ولا يخفى أن ذلك كله لمراعاة الفواصل من جهة الإيقاع ثم للتخصيص بالتقديم ، ذلك أن في تقديم المفعول على الفعل والفاعل مزيد اختصاص بكونهم هم ظالمي أنفسهم ولم يظلمهم أحد ...

ويؤكد هذا المعنى ورود أكثر المواضع المذكورة مسبوقاً بالنفي مثل "وما ظلمهم الله " أو" وما ظلمناهم " أو وما كان الله ليظلمهم فلما نفى سبحانه إيقاع الظلم منه بهم ، قدم ذكرهم ليختصهم وحدهم بظلم أنفسهم ، وذلك بهذا التقديم للمفعول به ، وفي ذلك كله تسفيه ضمني لعقولهم وتهكم واستهزاء ، إذ لا يظلم العاقل نفسه وجعل فعل الفاصلة مضارعاً لإفادة التجدد والاستمرار،وتحقق مع هذا كله الإيقاع الجميل ذو الأثر القوي في إيصال المعنى، وحين لم يحتج إلى هذا التقديم جاء الكلام على الأصل ، كما في قوله تعالى ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسَهم﴾ (هود:١٠١) ذلك أن فواصل سورة هود في هذا الموضع ليست نونية وإنما هي "حصيد ، تتبيب ، شديد ".

٢- تقديم الجار والمجرور على عاملها أوعلى مكانهما في التركيب:

وهو أكثر صور التقديم في الفواصل ، وقد أحصيت منه في سورة البقرة وحدها (٥٥) موضعاً ، وهو عدد كبير ، وهذا فيما يخص تقديم

الجار والمجرور فقط ، ونسبة هذا التقديم إلى مجموع آيات السورة ١٩٪ تقريباً وهي نسبة كبيرة تؤكد حرص القرآن على جمال الإيقاع في الفاصلة ، هذا مع إفادة ذلك التقديم دلالات إضافية سياقية أكثرها للاختصاص،أي إفراد المتقدم وتخصيصه بمضمون العامل فيه بعده ، وهذا اللون من أكثر الأدلة بياناً لعظيم اهتمام القرآن بالفاصلة لفظاً ودلالة،وشواهده كثيرة كما قلنا،ومنها:

-﴿وللكافرين عذابٌ مهينٌ ﴾(البقرة:٩٠)

-﴿ ألم تعلمْ أن اللهَ على كل شيء قديرٌ ﴾(البقرة:١٠٦)

ففي تقديم الكافرين مزيد اختصاص لهم بالعذاب المهين،وقد كان من الممكن الفصل بلفظ الكافرين لتحقق التسجيع به وجوازه نحوياً ،إذ يجوز الابتداء بالنكرة إذا خصصت بالوصف كما في"عذاب مهين"ولكن جمال الإيقاع والدلالة يذهب كما لا يخفى إذا قيل "وعذاب مهين للكافرين".

وقد يتقدم الجار والمجرور على مكانهما في التركيب حين يكون المبتدأ معرفة مثل ﴿غفرانَك ربَّنا وإليك المصيرُ ﴾(البقرة:٢٨٥) ولكن تقديم الجار والمجرور حدد الجهة ونفى - ضمناً - وجود غيرها ، وهي كون المصير إلى الله تعالى وحده ، والله أعلم .

-﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ . إلى ربها ناظرةٌ ﴾(القيامة:٢٢-٢٣) حيث قدم "إلى ربها" على عامله "ناظرة" فتحقق بذلك الإيقاع الجميل في الفواصل ، مع الملحظ الدلالي وهو التخصيص ،يقول الزمخشري:"إلى ربها ناظرة ،تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول"(٨) ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿إلى ربك يومئذٍ المستقر﴾ و﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق﴾ و﴿ إلى الله تصير الأمور﴾و﴿ إليه

ترجعون﴾و﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾كيف دلّ فيها التقديم على معنى الاختصاص "[٩] وهذه الشواهد التي ذكرها كلها روعيت فيها الفاصلة كل في سياقها ،ولولا خوف الإطالة لفصلنا ذلك .

ومن الفواصل التي تتكرر كثيراً في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾و﴿أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ولا يخفى ما في التقديم هنا من الاختصاص بتحقيق موقع الخلود "فيها" لا في غيرها ، وتأكيد أنه لا مكان للمؤمنين في الآخرة إلا الجنة ،ولا مكان في الآخرة للكافرين إلا النار ثم مع هذه المعاني كلها يتحقق الإيقاع بالتسجيع في الفواصل المذكورة في سياق كل منها .

ولعل أوضح مثال على هذا التقديم بداية سورة المؤمنون ، حيث وقع في آياتها الأولى تقديم شبه الجملة للاهتمام والتخصيص ، وكذلك لبناء الإيقاع بفاصلة النون المسبوقة بحرف مد .

٣- تقديم الضمير على ما يفسره:

وجعلوا منه قوله تعالى ﴿ فأوجسَ في نفسه خيفةً موسى﴾ (طه:٦٧) قال الزركشي :" أصل الكلام أن يتصل الفعل بفاعله ويؤخر المفعول ، لكن أخر الفاعل وهو "موسى"لأجل رعاية الفاصلة ، قلت :للتأخير حكمة أخرى ، وهي أن النفس تتشوق لفاعل " أوجس" فإذا جاء بعد أن أُخّر وقع بموقع "[١٠].

والذي سهل هذا التأخير للفاعل عن موقعه مع تقدم ضميره في"نفسه" - وهو قليل في العربية- كون موسى مذكوراً في الآيات السابقة على هذه الآية، وبهذا التأخير تحقق الإيقاع كذلك في الفاصلة.

٤ - تأخير المنادى في بعض المواضع للفاصلة :

لا تحتم قواعد العربية وضع المنادى في مكان ما من الجملة،لكن المعتاد فيها تقديم المنادي كما في نداء "يا أيها الذين آمنوا "في القرآن الكريم الذي يأتي دائماً في مقدمة التركيب ، وكذا نداء الأعلام فيه كنداء آدم ونوح وغيرهم ، حيث يأتي عادة مقدماً،وجاء نداء إبراهيم عليه السلام مقدماً في ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ (هود:٧٦) والفواصل في هذا الموضع متنوعة لكن ليس من بينها الميم ، فهي " منيب ، مردود ، عصيب ، رشيد "وتأخير نداء إبراهيم ليكون فاصلة من هذه الفواصل سيغير هذا الإيقاع لا ريب ، ولكن حين احتيج إلى اسمه ليكون فاصلة يتحقق بها الإيقاع جاء نداؤه مؤخراً في :

- ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(الأنبياء:٦٢) والفواصل في هذا الموضع " الظالمين ، إبراهيم ، يشهدون ، إبراهيم" وقد ذكرنا من قبل أن النون والميم أكثر حروف الفواصل تعاقباً لوجود الغنة فيهما ، مع تحقق المد قبلها بحروف المد المعتادة .

- ﴿وناديناه أن يا إبراهيمُ ﴾ (الصافات :١٠٤)حيث وقع منادى وفاصلة ، والفواصل هنا " للجبين ،يا إبراهيم ، المحسنين "وكثر في هذا الموضع تعاقب النون مع الميم في الفواصل مع وجود المد ، ومن الدلائل على الاهتمام بإيقاع الفاصلة تأخير مضمون النداء بعد إبراهيم إلى الآية التالية .

ومن مجيء نداء موسى مقدماً:

-﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾(المائدة:٢٢)

- ﴿قالوا يا موسى اجعلْ لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ﴾(الأعراف :١٣٨)

والفواصل في ذينك الموضعين نونية مسجّعة ،ولذا تقدم نداء موسى عليه السلام ، ولكن حين احتيج إلى إيقاع اللفظ في الفواصل تأخر نداؤه في سورة طه وحدها في ثمانية مواضع ، وذلك في الآيات (١١-١٧-١٩-٣٦-٤٠-٤٩-٥٧-٨٣) ذلك أن أكثر فواصل سورة طه كما هو معلوم بالألف المقصورة ، ومعظم السورة في الحديث عن موسى وفرعون ، مع أحاديث أخرَ عن يوم القيامة وعن آدم ثم في نهايتها حديث لطيف إلى محمد ﷺ فكان تكرار ذكر موسى ونداؤه متسقاً مع الموضوع الأكبر مساحة فيها، وهو تناسق عجيب موزع بهذا القدر المعجز على آيات السورة الكريمة ، ومن ذلك :

-﴿فلما أتاها نودي يا موسى﴾(طه:١١)وقد تأخر مضمون النداء كما هو معلوم إلى الآية التالية لتحقيق الإيقاع في الفاصلة .

- ﴿قال ألقها يا موسى﴾(طه:١٦).

٥- تقديم خبر كان على اسمها :

لا يتقدم خبر كان على اسمها في القرآن إلا نادراً ، وغالباً ما يكون ذلك حين يكون الخبر شبه جملة كما في ﴿أو يكونَ لكَ بيتٌ من زُخرفٍ﴾ (الإسراء :٩٣) أو يكون الاسم مصدراً مؤولاً محصوراً بإلا مثل ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيناتٍ ما كان حُجتَهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ (الجاثية:٢٥) أما أن يكون الاسم والخبر معاً اسمين ظاهرين فالمعتاد سبق الاسم الخبر ولكن جاء ذلك قليلاً كما في قوله تعالى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ (الإخلاص: ٤٠) ذلك أن الفواصل في هذه السورة دالية أي مختومة بحرف الدال الساكن المقلقل للوضوح السمعي حسب قواعد التجويد ، هذا مع ما في التقديم من نكتة بلاغية، ذلك أن الآية مسوقة لنفي المكافأة والمساواة عن الله تعالى ، فنفي المكافأة هذه هو المراد الأصلي فجيء بها مع الجار

والمجرور ، وجيء بالاسم نكرة مؤخراً للعموم والشمول ،فليس أحدٌ كائناً من كان ندّاً لله تعالى ، والله أعلم .

ومنه كذلك قوله تعالى﴿ وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾(الروم:٤٧)

٦- تأخير المعطوف عن موضعه :

تتابع المعطوفات في عطف النسق عادة ولا يفصل بينها إلا نادراً ، وقد جعلوا من هذا الفصل قوله تعالى ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مسمى﴾ (طه:١٢٩) قال الزمخشري :" وأجل مسمى "لا يخلو من أن يكون معطوفاً على "كلمة " أو على الضمير في " كان" أي لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كما كانا لازمين لعاد وثمود "[١١].

قلت :الراجح فيه الوجه الأول ولذا لم يذكر العكبري غيره مع عادته في تعديد الوجوه الممكنة [١٢]وعليه فإن قوله تعالى "أجل مسمى" أخر لأجل الفاصلة ، وقُدم عليه جواب لولا الشرطية،ولعلنا نقول إنه مما سوّغ ذلك من جهة المعنى تأخر الأجل المسمى عادة عن النذر والكلمة التي هي الوعيد ، ومع هذا كله تحقق الإيقاع الجميل بتأخير الأجل ووصفه باسم مقصور يحقق الإيقاع مع الفواصل السابقة واللاحقة ، والله أعلم .

٧- تأخير المفعول عن موضعه :

وجعل منه الثعالبي قوله تعالى ﴿ قال آتوني أفرغْ عليه قطراً﴾ (الكهف :٩٦) حيث الأصل عنده : آتوني قطراً أفرغ عليه "[١٣]وهو عند النحاة من باب التنازع، أي تنازع عاملين معمولاً واحداً، حيث وقع "قطراً" مفعولاً لفعلين هما آتوني وأفرغ ، وإنما أُخّر المفعول

لأجل الفاصلة ، لأن الفواصل في هذا الموضع "ردماً ، قطراً ، نقباً " بالألف المنونة التي تتحول إلى حرف مد عند الوقف عليها بالسكون.

٨- تقديم الفاضل على الأفضل :

وذلك في تقديم هارون على موسى في موضع واحد وقد كثر كلام البلاغيين في هذا التقديم ، ولكنا ننظر في المواضع التي ورد فيها ذكر موسى وهارون في الفواصل ، وقد جاء هارون مقدماً في موضع واحد هو ﴿ **فألقي السحرة سجّداً قالوا آمنا برب هارون وموسى**﴾ (طه: ٧٠) في حين ورد ذكر موسى مقدماً في المواضع الآتية :

-﴿ **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٢١-١٢٢) (الشعراء :٤٧-٤٨).

-﴿ **قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ** ﴾

- ﴿**ولقد مننا على موسى وهارون** ﴾ (الصافات:١١٤)

- ﴿**سلامٌ على موسى وهارون** ﴾(الصافات :١٢٠)

والملاحظ أن هذا التقديم والتأخير مرتبط بالفاصلة لا يماري في ذلك متذوق للإيقاع الجميل، فالفواصل في سورة طه كما ذكرنا مراراً أكثرها بالألف المقصورة ، ولذا قدم هارون على موسى للفاصلة ، ولكن الفواصل في المواضع الأخرى نونية ، ولذا قدم موسى على هارون ، وهذا كله مرتبط بدلالة كل في سياقه كما نذكر مراراً ، وإذا قدم موسى في مواضع لأنه الأفضل فإن تقديم هارون في سورة طه لأنه ذكر أنه الأكبر سناً والأفصح لساناً ،ولأن موسى هو الذي سأل الله تعالى له النبوة﴿ **واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي** ﴾ (طه : ٢٩-٣٠) وهي أعظم مسألة سألها أخ لأخيه على مدار التاريخ...كل ذلك- مع الفاصلة - سوّغ تقديم هارون على موسى في هذه السورة، والله اعلم .

٩- تقديم المتأخر زماناً على المتقدم :

وجعلوا من ذلك قوله تعالى ﴿ فلله الآخرةُ والأولى﴾ (النجم :٢٥) [١٤] حيث قدم الآخرة على الأولى ، ومثله ﴿وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ (الليل:١٣)ومثله ﴿فأخذه اللهُ نكالَ الآخرة والأولى﴾(النازعات: ٢٥) هذا لأن الفواصل في هذه السور أكثرها بالألف المقصورة خصوصاً في مواضع تلك الآيات ،بل إن سورة الليل كلها بالألف المقصورة، وكذا النجم ما عدا بضع آيات في نهايتها .

على أن ثمة ملحظاً دلالياً في تقديم الآخرة على الأولى كذلك ، وهو الاهتمام بأمر الآخرة، وكون الدنيا بجنبها لحظات قصاراً ، وينبغي العمل للآخرة الباقية ...أما حين يقرن بين الآخرة والأولى في وسط الآية، أي في غير الفاصلة ، وحين يكون السياق سياق الحمد لله تعالى ، فإن الأولى تتقدم على الآخرة في ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص :٧٠) ذلك أن الحمد والعبادة لله تعالى في الدنيا ، والحمد والشكر يكونان له يوم القيامة لرحمته الواسعة بعباده ، وعدله الكامل في إثابة المحسنين وعقوبة الظالمين ، والله أعلم .

١٠- تقديم الأرض على السماء:

عادة القرآن أن يقدم ذكر السماء على الأرض ، ولكن ثمة موضعاً جاء فيه التسجيع بالهمزة بعد حرف المد ، والمناسب له لفظ السماء ، ومن ثم قدمت الأرض وأخرت السماء ، قال تعالى ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم :٣٨) والفواصل في هذا الموضع" السماء ، الدعاء ،دعاء "وبذلك يتحقق الإيقاع في الفواصل ، هذا مع ملاحظة أن الكلام محكي عن إبراهيم عليه

السلام وهو يدعو ربه ، فناسب أن يخبر إبراهيم بعلم الله تعالى لكل شيء وعدم خفاء شيء عنه سبحانه في الأرض أولاً لأنه يعيش فيها وهي إليه أقرب ، وهي مجال الحياة والعمل والكسب ... كل ذلك يجعل تقديم الأرض على السماء حاجة سياقية ، والملاحظ أن فاصلة الهمزة على ندرتها قد وقعت خمس مرات في سورة إبراهيم وخدها منها لفظ السماء مرتين، وذلك في الآيات (٢٤، ٣٨، ٤٣، ٤٠، ٣٩).

لقد قدمت الأرض على السماء في هذه الآية لأنه أريد تناسب الفاصلة فيها مع الفواصل الأخرى المبنية على الهمزة بعد مدة الألف ...هذا ما خلص إليه أحد الباحثين بشأن هذا التقديم [١٥] وقدمت الأرض على السموات في موضع آخرهو﴿ **تنزيلاً ممن خلق الأرض والسمواتِ العلى** ﴾ (طه:٤) حيث الفواصل بالألف المقصورة ولذا أخرت السموات ثم وُصفت بهذه الصفة المقصورة من بين الصفات الممكنة من المادة نفسها كالعليا والعوالي ، وذلك مراعاة للإيقاع الجميل المتحقق بلفظ العلى المتوافق مع الفواصل في السورة ،ولا شك أن في كل هذا تلويناً للخطاب وتنويعاً وفوائد يبحث عنها في مواضعها .

١١ - تأخير الصفة المفردة على الصفة من الجار والمجرور وفصلها عن الموصوف :

المعتاد في العربية متابعة الصفة للموصوف بلا فاصل ولكن دواعي الإيقاع في الشعر والنثر على حد سواء تستدعي تأخير الصفة المفردة للتقفية أو التسجيع ، وقد ورد ذلك في القرآن ومنه :

١ - ﴿**وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ** ﴾ (البقرة :٤٩) " من ربكم" صفة من جار ومجرور وعظيم صفة مفردة .

٢ - ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ (هود:١١٠)

٣- ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم :٩) .

وهذا الفصل والتأخير للصفة عن الموصوف كثير في القرآن الكريم ، وأرى أن أهم دواعيه إحداث الإيقاع، حيث فصلت الصفة عن الموصوف لأنها حاملة للمد المعتاد قبل حرف الفاصلة كما في "عظيم ومريب"على سبيل المثال،هذا مع إحداث التمكين للمعنى بهذا التأخير الذي ينتظره القارئ.

***

الهوامش

١- دلائل الإعجاز :١٨٥ .
٢- الكتاب :١/ ٣٤ .
٣- دلائل الإعجاز:٨٦ .
٤- نفسه :٨٨ .
٥- انظر: الدلائل :٨٦ .
٦- شرح المفصّل :١/ ٧٢ ط مكتبة المتنبي د.ت .
٧- انظر : نهاية الإيجاز للرازي :١١٦ .
٨- هذا على قول النحاة : إن أصل الجار والمجرور هنا المفعول به .
٩- الكشاف : ٤/ ٦٦٢ .
١٠- البرهان :١/ ٩٣.
١١- الكشاف :٣/ ٩٦.
١٢- إملاء ما منّ به الرحمن :٤٢٤.
١٣- فقه اللغة :٣٢٣.
١٤- الإتقان :٢/ ١٢٧.
١٥- السجع وتناسب الفواصل ، الدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج ، مجلة مجمع اللغة العربية :٢٧، عدد ٣٦،١٣٩٥هـ–١٩٧٥م .

ثالثاً : الإحــلال في الفواصل

استخلص البلاغيون والنحـاة في القـرون الأُوَل للثقافـة العربيـة صوراً منطقية مفترضة لفن القول،استخلصوها من تتبع النظام العام والشائع في الكلام وبنوا على ذلك قواعد محددة ، وهو مجهود ضـخم جليـل القـدر، ولكنـه لم يحـط بكـل صـور القـول ، خصوصاً ذات المستوى الرفيع والبلاغة العالية مما يتجـاوز حـدود الـصور المنطقيـة المفترضة سلفاً لفن القول ، ومع ذلك فقد لاحظوا هذه الـصور مـن تجاوز حدودهم وحاولوا إيجاد تعليل سـياقي مناسـب لكـل صـورة منها على حدة ،ومن قواعدهم تلك ضرورة تطابق العناصر المكونـة للجملة من تذكير وتأنيث وجمع وإفراد. . .إلخ،فلا يصح عـلى سـبيل المثال الإخبار عن سعيد بأنه كريمة ، والصواب : سعيد كريم ، فـإذا جاء ما يخالف ذلك بُحث في سياقه الخاص الذي يرد فيه للبحث عن دلالة ما وراء هذا الإحلال .

وهذا اللون لم يجمعه البلاغيون أو النحـاة تحـت مبحـث واحـد ، وإنما سموا كل حالة باسمها كقولهم : استعمال فاعل مكان مفعول،أو مفعول مكان فاعل أو الاستغناء بكذا عن كذا ، أو إجراء غير العاقل مجرى العاقل . . .إلخ ، وسنجمع ذلك كله تحت العنوان المـذكور ، وهو ما يدرسه المحدثون تحت مصطلح Replacement .

وهذا الإحلال ليس خروجاً على قواعد اللغة ، بل إنه جاء في كل حالة مراعياً السياق والدلالة المرادة ، ولم يكن ذلك يقع في الفواصـل فحسب ، ولكنه فيها أكثر لحاجة الإيقاع إليه .

وثمة لون بياني آخر مشابه للإحلال هـو الاسـتغناء أو الإيثـار – وسنذكر ذلك بعد – وهو إيثـار صـيغة أو تركيـب مـا عـلى غـيره في الفاصلة ، ولكنا أفردناه بالدرس لفـارق كبـير بينـه وبـين الإحـلال،

فالإحلال يختص بما كان قياسه كذا ولكنه جاء على غير ذلك ، والإيثار ليس قياسه شيئاً محدداً يعد استبداله إحلالاً لشيء مكان شيء إنما هو خيار من عدة خيارات كان من الممكن تواردها على ذلك السياق بعينه ، لكن واحداً منها أوثر على غيره لضرورة سياقية وإيقاعية .

ومن صور الإحلال في الفواصل القرآنية ما يأتي :

١ – إحلال صيغة فاعل محل صيغة مفعول : ومن شواهده :

أ-﴿خُلق من ماء دافق ﴾ (الطارق :٦) قالوا:إن"دافقاً هنا بمعنى مدفوق"[١] واللفظ بهذه الصيغة وافق زنة الفواصل بعده"الترائب، لقادر ، السرائر"لوجود حرف المد قبل آخر حرفين من الفاصلة في الكلمات الأربع،هذا مع كسر الحرف قبل الأخير في كل منها،مما يحقق إيقاعاً جميلاً ، ولو جاء اللفظ على "مدفوق" لذهب ذلك الجمال، هذا كله يسوّغ العدول عن مفعول إلى فاعل ..

لكن ثمة سبباً سياقياً آخر،ولنذكر أولاً ما قاله الزمخشري في ذلك قال:" ومعنى دافق : النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق،كاللابن والتامر ، أو الإسناد المجازي والدفق في الحقيقة لصاحبه"[٢] والأول- أي الوصف - أنسب في هذا السياق ، إذ هو موافق لطبيعة هذا الماء الذي لا يخرج إلا دفقاً، حيث تلازمه صفة الدفق لا تنفك عنه ، بل إنه إذا خرج بغير دفق لا يعدّ منياً بل يسمى الوَدِيَّ وليس منه غسل ، لهذا كله يتوافق "فاعل "مع السياق إيقاعاً ودلالة .

ب-﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٢٠-٢١) قالوا: راضية بمعنى مرضية...وقال الزمخشري كقوله في السابق : راضية: منسوبة إلى الرضا كالدارع والنابل..."[٣] ذلك أنهم

لم يتصوروا أن تكون العيشة نفسها راضية ، إذ لا يُتصور منها رضا أو سخط ، وإنما تكون مرضية عنها أو بها ، واللفظ جاء أولاً موافقاً للإيقاع ، حيث الفواصل في هذا الموضع " حسابيه،راضية ، عالية ، دانية " ولو جاء بلفظ "مرضية "لانكسر الإيقاع كما هو معلوم ، ولكن دلالة اللفظ كذلك تصور العيشة بأنها راضية،أي الرضا منسوب إليها هي كأنه خصيصة فيها لا في من تكون له،وذلك زيادة في إكرام أصحاب هذه العيشة،والله أعلم .

٢ -إحلال صيغة مفعول محل فاعل :

وجعل منه الثعالبي ما يأتي :

أ-﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم: ٦٠) أي "آتياً "(٤) ولكنا لا نجد غضاضة في جعل الوصف كما هو، وذلك أبلغ تصديقاً بدلالة الآية، أي وصف الوعد نفسه بأنه مأتي ،كأنه علامة ظاهرة يتوافد إليها الناس ، فهو إذن على ظاهره ، ثم إنه يحقق إيقاعاً في الفواصل بصيغة المفعول لا يحققه بصيغة الفاعل ، والفواصل في هذا الموضع " غياً ، شيئاً ، مأتياً، عشياً، تقياً " فأكثرها بياء مشددة بعدها ألف مد،حتى المهموزة منها متقاربة صوتياً مع الباقيات ، وهذا الإيقاع لا يوفره اسم الفاعل "آتياً" .

ب-﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾(الإسراء :٤٥)أي ساتراً"(٥) والفواصل في هذا الموضع "غفوراً،مستوراً ، نفوراً ، مسحوراً "فلفظ المفعول يحقق التوافق الإيقاعي في الفواصل ، ولو كان اللفظ" ساتراً" لذهب ذلك الإيقاع المتحقق بثلاثة أحرف مكررة في هذه الفواصل جميعاً ، أولها الواو ، وهي لا تعاقب الألف في مد الفاصلة كما ذكرنا من قبل إلا نادراً ، أما الدلالة فيقول فيها الزمخشري :" حجاباً مستوراً : ذا ستر،

كقولهم : سيلٌ مُفعَم ذو إفعام ، وقيل : هو حجاب لا يُرى فهو مستور، ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب فهو مستور بغيره ..."[6] .

قلت : إن الله عز وجل يخبر نبيهﷺ بكراهية الكفار للقرآن ولسماعه ، ويخبره بأنه عصمه حين يقرأه من هؤلاء فجعل له حجاباً مستوراً ،وهو إذن أبلغ في الدلالة من فاعل ، لأنه إذا كان الحجاب نفسه مستوراً كان مَنْ وراءه أشد ستراً ، وكأن هذه الحجب هي الأكنة التي جعلها الله على قلوبهم ،أو كأنها الحماية التي حمى الله بها رسوله من عدوه أو ما يقرب من ذلك، وإلا فإنهم كانوا يسمعونه بلا ريب يقرأ القرآن في الصلاة وغيرها، وكان يتلوه على بعضهم ، بل كان بعضهم يتسمّع إليه خفية ، والله أعلم .

٣- إحلال المفرد محل المثنى :

وذلك كأن يكون الخطاب لمثنى فينص على أحدهما دون الآخر ، ومنه :

أ- ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (طه:١١٧) الخطاب لآدم وحواء في بداية الآية ، ولكنه ختم بخطاب آدم وحده ، وفواصل السورة أكثرها بالألف المقصورة - وهي حرف العلة هنا-والفواصل هي" أبى، فتشقى،تعرى ، تضحى"ولو قال : "فتشقيا " مجزوماً بعد الفاء لذهب ذلك الإيقاع الجميل ، ولكن لذلك أيضاً نكتة بديعة، ذلك أن أصل العمل والقوامة والسعي في هذه الحياة إنما هو للرجال ، والمرأة لرعاية الأسرة وعمل البيت ، هذا هو الأصل المقرر في الدين الحق ، ولذا جعل الشقاء - بمعنى الكد والتعب والسعي في الأرض -لآدم وحده دون حواء ، ليكون أصلاً تقتدي به ذريتهما من بعدهما .

ب- ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ (طه:٤٩) والخطاب في هذا الموضع وما سبقه موجه إلى موسى وهارون ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري .اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ (٤٢-٤٣)ولكن فرعون اختص موسى وحده بالنداء في نهاية الآية مع أنه ابتدأ الخطاب للمثنى في "ربكما " وقد تحقق إيقاع الفاصلة بذلك كما هو معلوم ، غير أن موسى لا شك كان حامل العصا وصاحب اليد التي يضعها في جيبه فتخرج بيضاء...وإنما كان هارون معه ردْءاً مصدقاً ، فناسب أن يوجه الخطاب إذن إلى موسى .

٤- إحلال المثنى محل المفرد :

وجعلوا منه قوله تعالى ﴿ولمن خاف مقامَ ربِّه جنتان ﴾ (الرحمن :٤٦) جعله الزركشي من باب "تثنية ما أصله أن يُفرد ... ونقل عن الفراء أنه من باب " مذهب العرب في تثنية البقعة الواحدة وجمعها . كما قال : ديارٌ لها بالرقمتين ، وقوله : بطن المكتين، وأشير بذلك إلى نواحيها...وإنما ثناها لأجل الفاصلة رعاية للتي قبلها والتي بعدها على هذا الوزن، والقوافي تحتمل في الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام "(٧).

ولكن ذكر الفاصلة بلفظ الجنة مفردة أو مجموعة يذهب بالإيقاع كما ترى، فالتثنية محققة لإيقاع الفاصلة ، والجنة ترد في القرآن مفردة لأنها حقيقة جنة واحدة،وجاءت مجموعة لأنها درجات ودرجات، فكأن الجمع فيها للتكثير لا لحقيقة العدد ، ولم يبق من صور اللفظ غير التثنية فجاءت في سورة الرحمن ، ولعله الموضع الوحيد الذي جاءت جنة الآخرة فيه مثناة ، ليستوفي ذكر الجنة صور اللفظ الثلاث وهو تلوين للكلام وزيادة في البيان والإكرام لا ريب ، وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال:" إن أهلَ الجنة ليتراءون

أهلَ الغرفِ من فوقهم كما تراءون الكوكبَ الدريَّ الغابرَ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم "[٨] وبهذا الذي تقدم نستبعد قول الزمخشري في تحليل التثنية هنا بقوله :"فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان ، جنة للخائف الإنسي وجنة للخائف الجني ، ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصي ،لأن التكليف دائر عليهما "[٩] .

٥- إحلال الجمع محل المثنى:

ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت:١١) ولو جرى اللفظ على قياس البشر-وحاش لله -لقالوا : طائعتين ، ولكن ذلك يذهب بالمد المتحقق في الفواصل فيذهب الإيقاع ، والفواصل هنا "للسائلين ،طائعين ، العليم " فالمدّ موجود فيهما جميعاً،والميم تعاقب النون كما ذكرنا،فتحقق الإيقاع بلفظ الجمع" طائعين" الذي وقع حالاً للمثنى ، قال الزمخشري :"فإن قلت :هلاّ قيل: طائعتين على اللفظ؟ أو طائعات على المعنى ؟ لأنها سماوات وأرضون ، قلت : لما جعلهن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل : طائعين في موضع طائعات،نحو ساجدين"[١٠] .

قلت :وينضاف إلى ذلك اعتبار ما فيهما من مخلوقات كثيرة متنوعة، فكأنه روعي فيهما الجمع لكثرة المخلوقات فيهما،ولذا أحل لفظ ما يعقل محل ما لا يعقل كما مثل له بلفظ"ساجدين" في سورة يوسف كما سيأتي.

٦-إحلال صيغة العاقل محل صيغة لغير العاقل : ومنه :

أ- ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف :٤) وساجدين جمع مذكر سالم، والمذكور قبله

ليس من جمع المذكر السالم ، وقياسه ساجدات مثل ﴿**والشمس والقمر والنجومَ مسخراتٍ أمره**﴾(الأعراف ٥٤) ولكن الإيقاع لا يتحقق إلا بلفظ جمع المذكر السالم لأن الفواصل نونية ، وفيه نكتة أخرى ، قال الزمخشري :" فإن قلت :فلم أُجريت مجرى العقلاء في رأيتهم لي ساجدين ؟ قلت :لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة، وهذا كثير شائع في كلامهم، أن يلابس الشيءُ الشيءَ من بعض الوجوه فيعطى حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابسة والمقاربة "(١١) .

قلت : وفيه نكتة أخرى ، وهي أنه لما كان مآل الرؤيا أن يكون الساجدون إخوته وأبويه حينما استدعاهم إلى مصر ، ناسب مجيء لفظ العاقل ذلك أيضاً ، والله أعلم .

ب- ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (الأنبياء :٣٣) حيث أخبر عن غير العاقل بصيغة العاقل في "يسبحون "وقياسه "يسبح" ليكون الخبر على الإفراد كما تقول محمد وعلي وخالد كلٌّ واقفٌ ، أو يسبحن على جمع التكسير ، هذا قياسنا القاصر ، ولكن الإيقاع يتحقق بالفاصلة النونية المسبوقة بالواو ، ومع ذلك يُضفي على الجماد صفة العقل لتحركه في أفلاكه بنظام عجيب بديع لايحيد عنه لحظة ولا يتخلف ولا يتقدم ولا يتأخر بل هو في ذلك أضبط وأدق من كثير من العقلاء !!

٧- إحلال المفرد محل الجمع:

ومنه ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴾ (الفرقان :٧٤) حيث استغنى بالمفرد "إماماً" عن الجمع (١٢) و"أراد أئمة فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس... أو أراد : واجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا واتفاق

كلمتنا "[١٣] قالوا : ومثاله ﴿وما كنتُ متخذَ المضلين عضداً﴾ (الكهف:٥١) ذكر الزركشي عن ابن سيدة :عضداً أي أعضاداً، وإنما أفرد ليعدل رؤوس الآي بالإفراد"[١٤] والفواصل في الأول "عمياناً ، إماماً ، سلاماً ".

ولو جاءت الفاصلة جمعاً لذهب ذلك الإيقاع ، ولكن للفظ المفرد كذلك دلالة كأنها يشير إلى اتحاد نهج أتباع الحق فكأنهم شخص واحد لاتحاد المنهج والسلوك...والفواصل في الموضع الثاني"بدلاً ، عضداً موبقاً " ولو قيل : أعضاداً لصعبت في النطق ولذهب الإيقاع لوجود المدّ فيها وخلو الفواصل منه، وفيه نكتة أخرى تقرب مما قدمنا في "إماماً " حيث طريق المضلين واحد، فكأنهم شخص واحد كذلك، فناسب ذلك لفظ الإفراد والله أعلم .

٨-إحلال المؤنث محل المذكر :

قال تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ . كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴾ (المدثر ٥٣:-٥٥) حيث أخبر عن القرآن بأنه تذكرة، وجعله الزركشي من باب "تأنيث ما أصله أن يذكر وإنما عدل إليها للفاصلة "[١٥] والفواصل بالهاء ، ولذا ناسب ذلك ذكر لفظ "تذكرة "فاصلة .

ومنه كذلك ﴿ بل الإنسانُ على نفسه بصيرةٌ ﴾ (القيامة : ١٤) حيث جاء الخبر المؤنث "بصيرة" للمبتدأ المذكر" الإنسان" والفواصل في ذلك الموضع هاء ، فحقق الإيقاع معها أما وجوهه النحوية والدلالية فيقول عنها ابن الأنباري: " فيه ثلاثة أوجه :

الأول : أن تكون الهاء فيه للمبالغة ، كعلاّمة ونسّابة وراوية .

الثاني : أن يحمل الإنسان على النفس ، فلذلك أنث بصيرة .

الثالث: أن يكون أنث بصيرة لأن التقدير فيه : بل الإنسان على نفسه عين بصيرة ، فحذف الموصوف ، وأقيمت الصفة مقامه ."[١٦]

٩ - إحلال المذكر محل المؤنث :

ومنه قوله تعالى عن مريم ﴿وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ (التحريم :١٢) حيث جعلها من القانتين بدلاً من القانتات حيث الفواصل قبلها نونية" الداخلين ، الظالمين ، القانتين" وهي نهاية السورة ، ولو جاءت الفاصلة" القانتات "لذهب الإيقاع هذا مع ما للفظ المذكر هنا من إيحاء خاص ، وهو إدخالها مع الرجال لتشبهها بهم في الطاعة وكثرة العبادة والقنوت ، فهي كاملة الدين والعقل مثل كثير من الرجال ، وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً " كَمَلَ مِنْ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ "(١٧).

والتذكير والتأنيث يُراعى في الفواصل ، ومن ذلك:

-﴿تنزعُ الناسَ كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعرٍ ﴾ (القمر :٢٠)

- ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٧)

والفواصل في القمر رائية وفي الحاقة في ذلك الموضع بالهاء ، ولذا ناسبت كل صفة موقعها ، والمنقعر صفة النخل وهو مذكر ، والخاوية صفة الأعجاز وهي مؤنثة ، وذلك يظهر بلاغة القرآن العظيم واهتمامه بالإيقاع اهتماماً ظاهراً .

١٠ -استعمال حرف جر مكان آخر :

يكثر في العربية استعمال حرف جر مكان غيره لتقارب المعاني . ويُعتمد على السياق في فهم ذلك،وفي القرآن استعمل الفعل أوحى متعدياً بنفسه مرات ومتعدياً بإلى كثيراً وورد متعدياً بلام الجر في موضع واحد هو قوله تعالى ﴿بأن ربَّك أوحى لها﴾(الزلزلة:٥) وهو من " إيقاع حرف مكان غيره "(١٨) .

والفاصلة في ذلك الموضع لا تحتمل " إليها " حتى لا ينكسر الإيقاع الجميل المتكرر في الآيات ، ولذا جاء الفعل في هذا الموضع الوحيد معدى باللام لمكان الفاصلة ، والله أعلم .

***

الهوامش

١ .الصاحبي:٣٦٦،وفقه اللغة : ٣٣٠.

٢ .الكشاف : ٤/ ٧٣٥.

٣ .نفسه : ٤/ ٦٠٣.

٤ .فقه اللغة: ٣٣١.

٥ .نفسه: ٣٣١.

٦ .الكشاف :٣/ ٦٧٠.

٧ .البرهان : ١/ ٩٥.

٨ .رواه الشيخان وأحمد ، انظر : صحيح الجامع:١/ ٤٠٦ ح(٢٠٢٧)

٩ .الكشاف : ٤/ ٤٥٢.

١٠ .نفسه : ٤/ ١٩٠.

١١ .نفسه : ٢/ ٤٤٤.

١٢ .الإتقان : ٢/ ١٢٨.

١٣ .الكشاف :٣/ ٢٩٦..

١٤ .البرهان:١/ ٩٥.

١٥ .نفسه : ١/ ٩٦.

١٦ .البيان في غريب إعراب القرآن : ٢/ ٤٧٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

١٧ .رواه الشيخان ولفظه للبخاري وأحمد والترمذي وابن ماجة ، انظر : صحيح الجامع:٢/ ٨٤٠ ح(٤٥٧٨)

١٨ .الإتقان : ٢/ ١٢٨.

رابعاً :

الاستغناء ببعض الصيغ والتراكيب عن غيرها للفاصلة

ذكرت من قبل أن الاستغناء بشيء عن غيره ليس أمراً قياسياً يمكن تحديده بأنه كان ينبغي كذا فجاء على كذا وفق الشائع المعلوم من لغة العرب ، وإنما الاستغناء هنا اختيار من خيارات عديدة ممكنة كان من الجائز- وفق استعمالنا البشري للغة - التبادل بينها ، ولكن القرآن الكريم المعجز بطبيعته وبلغته لا يمكن أن يبدّل منه حرف أو كلمة مكان غيرها، ويبقى أن نمعن البحث في أشكال التعبير فيه لم جاءت هكذا ، وما الفرق بين هذا التعبير وغيره... إلخ ، ونرى أن هذا من باب تدبّر القرآن والتفكّر فيه ، وهو أمر قرآني وارد في آيات كثيرة، ولون من ألوان البحث في إعجاز هذا الكتاب الخالد .

والاستغناء يغلب أن يكون اختياراً قليل الاستعمال يُؤثر على غيره مما هو شائع مستعمل في القرآن الكريم أو لغة العرب، ولا شك أن ما يُلجئ إلى القليل النادر مؤثراً إياه على الكثير الشائع أمر يستحق الدرس السياقي لتتبع ذلك والبحث عن دلالته.

وسوف نتناول ذلك في نقاط على النحو الآتي :

١ - إيثار بعض صيغ المبالغة على بعض :

صيغ المبالغة كثيرة في العربية ولكن النحاة ذكروا منها خمساً شائعات دائرات في العربية هنّ: فعيل وفعول وفعّال ومِفْعال وفَعِل ، وقد رتبتها حسب كثرة استعمالها في العربية مما خبرناه من دراستنا الطويلة لها ، ولكن ثمة صيغاً أخرى نادرة الاستعمال منها : فاعول مثل فاروق ، وفِعِّيل مثل سِكِّير ، ومِفْعَل مثل مِكر ومِفر ، وفُعال مثل عُجَاب وفُعّال مثل كبّار... إلخ ، وهي لندرتها لا تُدرس عادة في

كتب النحو المدرسية في المدارس والجامعات،وصيغة فعيل أكثر هذه الصيغ استعمالاً في فواصل القرآن الكريم .

ومن هذه الصور :

أ- ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾(ص:٥) حيث أوثرت صيغة عجاب على عجيب المستعملة فاصلة في موضعين :

-﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ هود :٧٢)

- ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (ق:٢)

والفواصل في هود "يعقوب ، عجيب ، مجيد "وفي ق "مجيد ، عجيب ، بعيد"حيث حرف المد قبل الفاصلة الياء أو الواو ، وهما يتعاقبان كثيراً في الفواصل كما ذكرنا ، ولا يتعاقبان مع الألف إلا نادراً ، أما الفواصل في موضع "عجاب"فهي" كذاب ، عُجاب ، يُراد " وكلها بالألف قبل الفاصلة .

وكل ذلك مراعى فيه التوافق الصوتي والإيقاع الجميل في كل موضع ، على أن لاستعمال "عجاب" نكتة أخرى زائدة على" عجيب" حيث إن امرأة إبراهيم أخبرت بتعجبها من الولادة وكبر زوجها، وأخبر الكافرون بعجبهم أن يكون من البشر رسول وليس من الملائكة، ولكنهم في "ص" اشتد عجبهم من أن تكون الآلهة المتعددة باطلة وأن يكون هناك إله واحد لا إله غيره ، فلما زاد عجبهم ناسبه استعمال صيغة أكثر مبالغة في الوصف وهي عجاب ، قال الألوسي : "إن " فُعَالاً" بناء مبالغة كرجل طُوال وسُراع ، ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد الآلهة وواظبوا

على عبادتها وقد كان مدارهم في كل ما يأتون ويذرون التقليد فيعدون خلاف ما اعتادوه عجباً بل محالاً "[1].

ومعلوم أن صيغ المبالغة إذا كانت في حق البشر ففيها الزيادة والنقصان أما إذا عبّر بها عما يتعلق بصفات الله تعالى فليست واحدة منها بأبلغ من الأخرى في الصفة ، إذ لا يُتصور لقدرته ولا لسمعه أو بصره أو علمه سبحانه زيادة أو نقصان، ولكن تبقى اعتبارات السياق - وأهمها في هذه الحالة الاعتبارات الصوتية - تبقى مجالاً للبحث عن صور التنوع في الألفاظ والتراكيب ،إن غفوراً وغفّاراً في صفات الله تعالى في المعنى والمبالغة سواء ، ولكن إحداهما تؤثر في الفاصلة على الأخرى لاعتبارات التنوع والفاصلة، وقد وردت صيغة "غفور" - على سبيل المثال - فاصلة عشر مرات في حين وردت صيغة "غفّار" فاصلة خمس مرات،وهو يؤكد ما قلناه من قبل عن نسب استعمال هذه الصيغ في العربية،ويؤكد ثانياً ما ذكرناه من أن هذه الصيغ إذا استعملت في حق الله تعالى لا يُتصور بينها تفاضل أو زيادة أو نقص ، ومن ذلك :

١ -﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾(سبأ: ١٥) والفواصل في هذا الموضع " مهين ، غفور ، كفور ".

٢ - ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ (نوح: ١٠).

والفواصل هنا هي "إسراراً ، غفاراً ، مدراراً " وقد ناسبت كل صيغة من "غفور وغفار"موضعها تماماً وأدت وظيفتها الإيقاعية على خير وجه، ولا أظن أن ثمة تفاضلاً دلالياً بينهما ، إن قوم نُوح طُلب إليهم استغفار الله تعالى لأنه غفّار،وكذلك أهل سبأ طلب إليهم شكر الله تعالى والتوبة إليه لأنه غفور، والله أعلم .

ب- ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا . وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح :٢١-٢٢)

والمعتاد في الفواصل استعمال صيغة "كبير " للمبالغة ، ولكن الفواصل هنا لا تحتملها ولذا أوثرت عليها صيغة فُعّال وهي أشد من "فُعَال " المخففة في المبالغة، قال الزمخشري "والكُبّار أكبر من الكبير ،والكُبّار أكبر من الكُبَار ، ونحوه : طُوَال وطُوّال "[٢].

ج- ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾(القمر:٨) وقد ذكرت من قبل أن لفظ "عسير" استعمل فاصلة مرتين لوجود المدّ فيه وتوافقه مع الفواصل في ذينك الموضعين ، ولكن فواصل سورة القمر رائية مسبوقة بحرف متحرك وليس فيها المدّ ، فأوثرت صيغة فعِل على صيغة فعيل لتحقيق التوافق الإيقاعي مع باقي الفواصل .

٢-إيثار اسم التفضيل على صيغة المبالغة:

اسم التفضيل من الأسماء المشتقة، وهو يستعمل لبيان التفاوت بين شيئين أو أشياء في صفة مشتركة، ولكنه إذا استعمل في حق الله تعالى يدل على مطلق القدرة لا مجرد التفضيل، ولذا يحذف معه في هذه الحال المفضل عليه عادة،كما في قولنا : الله أكبر ، والله أعز وأكرم،وفي القرآن الكريم ﴿سبح اسمَ ربِّك الأعلى ﴾(الأعلى: ١١) وفيه ﴿ واللهُ خيرٌ وأبقى ﴾(طه:٧٣) أي أعلى وخير وأبقى مطلقاً دون حاجة إلى ذكر مفضل عليه، وقد أوثر اسم التفضيل على صيغة المبالغة في قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(العلق:٣-٥) ذلك أولاً لتوافق الفواصل والإيقاع ، وهو ما لا تحققه صيغة المبالغة" الكريم " وثانياً لإطلاق الكرم بصيغة اسم التفضيل المحلاة بالألف واللام وحذف المفضل عليه، والله عز وجل

كريم وأكرم لا تفاضل بين الصيغتين إلا من حيث حاجة السياق إلى كل منهما ، لا من حيث المبالغة في إحداهما عن الأخرى ، والله أعلم .

٣- إيثار جمع تكسير على آخر:

وأوضح مثال على ذلك قوله تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ (التكاثر:١-٢) لقد ورد لفظ القبور في القرآن خمس مرات ، منها أربع في الفواصل ،وورد لفظ المقابر مرة واحدة هي المذكورة في الآية ، وهو لون من تنويع الكلام أولاً يجري في كلام البلغاء من البشر عادة ، ويأتي كذلك في أبلغ كلام وأجمله وهو القرآن الكريم ، والفاصلة في سورة التكاثر لا يتحقق فيها الإيقاع بلفظ القبور، لكن يتحقق بلفظ المقابر لأن الفاصلة قبله"التكاثر"وكلا اللفظين جمع تكسير ولكن المقابر جمع مقبرة ، والقبور جمع قبر ، ومعلوم أن المقبرة الواحدة فيها قبور عدة ، فيكون لفظ المقابر - مع ما حققه من الجرس والإيقاع اللفظي - أبلغ دلالة من القبور ، وذلك في تصوير تكالب أهل الدنيا عليها وتفاخرهم بما ليس مجالاً للفخر ، بل يصيرون هم ومن افتخروا بهم جميعاً إلى مآل واحد هو المقابر،والله أعلم .

٤-إيثار اسم الفاعل على الاسم الموصول :

وذلك لأجل الفاصلة ، وقد عدّه ابن الصائغ من باب مخالفة الأصول لأجل المناسبة في الفواصل[٣] ومنه ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت:٣) حيث تقتضي المقابلة بين " الذين صدقوا" أن يكون ختام الآية " الذين كذبوا " ولكن ذلك لا يحقق الإيقاع في الفاصلة كما هو معلوم ، ولذا أوثر اسم الفاعل على الاسم الموصول .

٥-إيثار مصدر مؤكد غير مصدر الفعل الموجود بالجملة : ومنه :
أ- ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ (المزمل :٨) حيث إن مصدر تبتل "تبتلٌ "ولكنه بهذه الصيغة لا يحقق الإيقاع في الفواصل التي فيها المد " طويلاً، تبتيلاً ، وكيلاً" ولذا أوثر مصدر آخر من لفظه هو المذكور ، قال الزمخشري :" فإن قلت : كيف قال : تبتيلاً مكان تبتلاً ؟ قلت :لأن معنى تبتل بتل نفسه فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل "(٤).
ب-﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (نوح:٧) ومصدر أنبت "إنبات " ولكن أوثر عليه نبات " لخفة اللفظ وأدائه المعنى نفسه ، والله أعلم .
٦-إيثار صيغة المضارع على الماضي ، ومنه :
أ- ﴿فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾(البقرة :٨٧) .
ب-﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ﴾ (المائدة:٧٠) .
والكلام في شأن بني إسرائيل ممن كذبوا الأنبياء وقتلوا بعضاً منهم ، والفواصل في المواضع المذكورة نونية، ولذا جاء فعل التكذيب بصيغة الماضي لأنه ليس فاصلة ، أما فعل القتل فقد جاء بصيغة المضارع المرفوع بثبوت النون لأنه فاصلة ، محافظة على إيقاع الفواصل ، ولكن ثمة نكتة أخرى هي أن التعبير بالمضارع يفيد التجدد والاستمرار واستحضار الصورة للفعل المذكور ، زيادة في النكير عليهم والتوبيخ، وفعل التكذيب أقل ضرراً من فعل القتل في حق الأنبياء وإن كان كلاهما كفراً وإلحاداً ، ولذا جاء التكذيب بالماضي والقتل بالمضارع لأنه أشد جرماً من التكذيب.
٧- الاستغناء بصفة الشيء عن اسمه:
وجعل منه الثعالبي قوله تعالى ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾(٥)(القمر :١٣) والدسر:المسامير، وذات الألواح والدسر

سفينة نوح عليه السلام ، قال الزمخشري :" أراد السفينة ، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتؤدي مؤداها بحيث لا يفصل بينها وبينها ..."[1] ولكن ما فائدة الاستغناء بالصفة عن الموصوف ، مع أن الموصوف وهو السفينة يذكر بلفظه في مواضع أخر أو بلفظ الفُلْك في غيرها ؟ نقول أولاً : إن الصفة قد حققت الإيقاع الجميل المؤثر في السورة التي كل فواصلها بالراء ، ولكن القرآن كما ذكرنا مراراً لا يأتي بالفاصلة لمجرد الإيقاع ، والفاصلة نفسها إيقاع ودلالة .

وها هنا نكتة بديعة في ذكر الصفة وإيثارها على الموصوف، حيث إن الصفة وضحت المواد التي صنعت منها السفينة وهي ألواح من خشب ومسامير فقط ! وأي سفينة بهذه الصفة يمكن لها أن تقاوم أمواجاً كالجبال غطت رؤوس الجبال ؟ إن الناس في زماننا رغم التقدم العلمي الهائل في صناعة السفن بما لايقارن مع ما مضى لم يفلحوا بعد في صنع سفينة تقاوم الرياح والأمواج المعتادة حين تهيج قليلاً ... فكيف إذا كانت أمواجاً كالجبال؟إن ذكر المواد التي صنعت منها السفينة إذن إيذان بفضل الله العظيم على نوح ومن معه من المؤمنين ، حيث نجاهم من ذلك الموج بسفينة من خشب ومسامير لا تقدر على مواجهة أقل الرياح والأمواج شأنا ...إنها نعمة عظمى من الله تعالى ، وبهذا يتحقق في الفاصلة الجمال الإيقاعي والدلالي معاً .

٨- إيثار أغرب اللفظين لغرابة المعنى:

ليست الغرابة في الألفاظ ذاتية بحيث يولد اللفظ غريباً...إن مقياس الغرابة - فيما نظن - هو كثرة الاستعمال وقلته، أو الألفة الناشئة من دوران اللفظ في الحياة أو قلة حركته فيها ، إن الألفاظ كالبشر تماماً،ومن ثم نجد ألفاظاً تستعمل كثيراً وتدور في الحياة

وأخرى على خلاف ذلك فتسمى غريبة ، وقد جعلوا من ذلك لفظ "ضيزى " في قوله تعالى﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾(النجم:٢١-٢٢) وهذه اللفظة تحقق إيقاع الفاصلة بلا ريب، وهي بمعنى ظالمة أو جائرة ، وهاتان لا تحققان الإيقاع نفسه، ولكن غرابة المعنى الذي ابتدعه أولئك الظالمون ممن جعلوا الملائكة إناثاً وقالوا إن الملائكة بنات الله ...هذه الغرابة استدعت غرابة في اللفظ ليوافق المبنى المعنى ، ولذا أوثر لفظ ضيزى على غيره،والله أعلم .

ومثل ذلك إيثار لفظ الحطمة على النار أو جهنم في قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ (الهمزة :٤) وذلك لأن الفواصل في السورة كلها" هاء "وبذلك يتحقق الإيقاع بكلمة الحطمة ، غير أن اللفظ نفسه يحمل معنى جديداً إضافة إلى ما يحمله لفظ النار وهو معنى الحطم ، ومثل ذلك إيثار لفظ "سقر" على النار أو جهنم في قوله تعالى ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴾ (المدثر:٢٦-٢٩) فالفواصل رائية ولفظ سقر يحقق الإيقاع ، وفيه كذلك معنى الحرارة الشديدة ، قال الراغب :" سقر : من سقرته الشمس وقيل صقرته أي لوّحته وأذابته ..." (٧) .

٩- إيثار المظهر على المضمر :

من عادة العرب أن يذكروا الاسم أول مرة ثم إذا عادوا إليه عادوا بالضمير المناسب لذلك الاسم، وهو لون من ألوان الإيجاز والاختصار ، ولولا ذلك لطال الكلام وحدث ملل كبير...ولكن ثمة مواضع يؤثر فيها وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التقرير للمعنى والتمكين له والتوكيد ، وهذه المعاني قد تكون للتعظيم أو

التحقير...[8] وكل يدرس حسب سياقه، وإنما يهمنا هنا ما جاء منها في الفاصلة للتمكين للمعنى وإقامة الفاصلة ، ومن ذلك :

أ- ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(يوسف : ٩٠) ولم يقل : فإن الله لا يضيع أجرهم ، وإنما أثبت لهم الأجر وأعاد ذكرهم بلفظ الإحسان الذي يشمل التقوى والصبر وزيادة .

ب- ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ (الأعراف :١٧٠) حيث أعاد ذكرهم بلفظ المصلحين لتمسّكهم بالكتاب وإقامة الصلاة،ولم يقل : إنا لا نضيع أجرهم ، وكل ذلك يحقق الإيقاع في الفاصلة كما هو معلوم .

ج- ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٩٨) ولم يقل:"عدو لهم " وإنما أعاد ذكرهم بلفظ الكافرين ، قال الزمخشري :" أراد : عدو لهم فجاء بالظاهر ، ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة كفر "[9].

وهذا اللون كثير في القرآن الكريم ، وهو يحقق إيقاع الفاصلة أولاً ويفيد في سياقه معنى زائداً لم يكن ليتحقق لو جيء بالمضمر مكان الظاهر ، والله أعلم .

***

الهوامش

١- روح المعاني :٢٣/ ١٦٦ . ٢-الكشاف:٤/ ٦١٩،والمفردات :٤٢٣ .

٣- الإتقان:٢/ ١٢٧ . ٤- الكشاف :٤/ ٦٣٩ .

٥- فقه اللغة :٣٦٢. ٦- الكشاف :٤/ ٤٣٤ .

٧- المفردات :٢٣٥ .

٨- راجع ذلك مفصلاً في البرهان :٢/ ٤٩٨وما بعدها .

٩- الكشاف :١/ ١٧٠ .

خامساً : حذف بعض الألفاظ في الفواصل

الحذف ظاهرة لغوية عامة ، والعربية لغة إيجاز يكثر فيها الحذف ، ولا غرو أن سماه ابن جني "شجاعة العربية" وقال:" قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه ، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته "[1] ويُرجع في معرفة المحذوف إلى السياق بقرائنه المتنوعة، وفي بلاغة الحذف وجماله يقول عبد القاهر :" هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ... "[2]

إن كل ما يقوم عليه دليل من السياق يجوز حذفه فيصير كأنه موجود ، وللحذف أنواع وأحوال ليس ثم مجال تفصيلها، غير أنّا نختص منه ها هنا ما وقع في الفواصل وما فيه من بلاغة وإيجاز وجمال ، ومن ذلك :

١ - حذف المفعول به :

وهو أكثر ألوان الحذف الواقعة في الفواصل خصوصاً حين تكون الفاصلة فعلاً مضارعاً مرفوعاً مسنداً إلى واو الجماعة بصيغتي "يفعلون أو تفعلون "حيث يكثر معهما حذف المفعول اكتفاء بدلالة السياق مع نكتة بلاغية تخص كل موضع على حدة ، والفعل يعلمون أو تعلمون - على سبيل المثال - يستعمل فاصلة وغير فاصلة ، غير أننا بالمقارنة بين استعماله في الحالتين وجدنا أنه حين لا يقع فاصلة يندر حذف مفعوله ، وحين يقع فاصلة يكثر حذف مفعوله ، ومن مجيئه غير فاصلة :

- ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة :٢٦)

- ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة ٧٨)
- ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(المائدة : ١٠٤)
- ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٤)

فالمفعول به مذكور صريحاً في هذه المواضع لأن الفعل لم يقع فاصلة ، وقد أحصيت استعمال الصيغتين " تعلمون ويعلمون " في القرآن الكريم فوجدتهما مستعملتين في (١٤٩) موضعاً منها (٢٩) في غير الفاصلة والبقية وقعت فواصل ، وفي المواضع التي وقع فيها الفعل في وسط الآية ذكر المفعول فيها صريحاً إلا في خمسة منها حذف مفعولها ، فالغالب إذن ذكر المفعول حين يكون الفعل غير فاصلة، وحذفه حين يكون فاصلة ، وذلك لاحتواء هذه الصيغة على المد والترنم بالنون ، وهو الغالب على فواصل القرآن كما ذكرنا من قبل .

وقد وجدت موضعاً وقع فيه الفعل فاصلة وذكر مفعوله ، ولكن المفعول جاء في بداية الآية التالية مع الوقف على الفعل لإحداث الإيقاع المذكور، قال تعالى ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (يس :٢٦-٢٧) .

ونستطيع أن نقرر النتيجة المذكورة ذاتها مع أفعال مثل : يفعلون أو تفعلون أو يفقهون وغير ذلك مما قد يطول بنا ذكره .

وفي بلاغة حذف المفعول يقول عبد القاهر :"اعلم أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية ،فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين ...ومثال ذلك قول الناس : فلان يحل ويعقد ، ويأمر وينهي ، ويضر وينفع...والمعنى في جميع ذلك إثبات المعنى في نفسه للشيء على الإطلاق وعلى الجملة من غير أن يتعرض

لحديث المفعول حتى كأنك قلت : صار إليه الحل والعقد ، وصار بحيث يكون منه حل وعقد ... "[٣].

وعلى هذا الأساس الذي قرره بعد استقراء متأن لمواضع حذف المفعول ينظر في حذفه في قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر :٩) فيرى أن المعنى " هل يستوي من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم "[٤].

وقد يحذف المفعول للمواساة والتخفيف كما في خطاب النبي ﷺ ﴿ ما ودعك ربُّك وما قلى ﴾ (الضحى:٣) حيث ذكر مفعول ودع وحذف مفعول قلى ، وذلك يحدث إيقاعاً في الفاصلة لا ريب ، لأن السورة أكثرها بالألف المقصورة ، ولكن لذلك نكتة أخرى هي " تحاشي خطابه تعالى رسولَه المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول : وما قلاك ، لما في القلى من حسّ الطرد والإبعاد وشدة البغض ، وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك "[٥] ولذلك لم يحذف مفعول ودع وحذف مفعول قلى،هذا مع ما أحدثه الحذف من إيقاع في الفاصلة.

وقد يحذف المفعول كذلك لترك مجال للمخاطب يتصور فيه ألواناً عدة ممكنة في ذلك المقام كانت ستختصر بالذكر في لون واحد ، ولذا يكون ترك الذكر أفصح من الذكر كما قال عبد القاهر، ومنه ﴿ فأما من أعطى واتقى﴾ (الليل:٥) لم يذكر مفعولي أعطى واتقى ليشمل العطاء والتقوى كل ما يمكن دخوله تحت هذين المعنيين من إعطاء المال أو الطعام أوكل عون واتقاء الله تعالى أو اتقاء المحارم والشبهات...ولو ذكر المفعول لاقتصر على لون واحد من العطاء أو التقوى،ومع هذا كله تحقق بحذف المفعول إيجاز وجمال وإيقاع في الفاصلة لم يكن ليتحقق بذكر المفعول،ومثال ذلك ﴿ إلا تذكرةً لمن

يخشى ﴾ (طه : ٣٠) أي يخشى العذاب أو النار أو يخشى الله تعالى ، ومثل ذلك في سورة طه أيضاً :

- ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ (٤٦) أي أسمع كل شيء وأرى كل شيء ، ولو ذكر المفعول لاقتصر الذهن على المسموع والمرئيّ المذكورين .

- ﴿لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ (٥٢) أي لا ينسى مطلقاً ، فليس من صفاته النسيان ، ، فالمراد إثبات الفعل في ذاته من غير إيقاع مفعول به ذلك أن المفعول غير موجود أساساً .

-﴿وقد خاب من افترى ﴾ (٦١) أي اتصف بصفة الافتراء بكل أنواعه.

٢-حذف متعلق أفعل التفضيل :

إذا استعمل أفعل التفضيل مفرداً نكرة مذكراً وجب مجيء من الجارة بعده متبوعة بالمفضل عليه ، وهي صورة قياسية ولكن ثمة مواضع يحذف فيها الجار والمجرور إرادة إطلاق معنى التفضيل دون إشعار بوجود مفضل عليه ، ومنه قولنا : الله أكبر ، ذلك أن المفضل عليه ها هنا كل ما سوى الله تعالى ، والأفضل حذفه للإشعار بطلاقة معنى التفضيل وعدم التقيد بمفضل عليه ، وهذا المعنى من الحذف يقع في الفواصل ليحقق الأمرين معاً ، الإيقاع والدلالة ، ومنه في سورة طه:

- ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾(٧)

- ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧٣)

- ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ (١٢٧)

- ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (١٣١)

إن حذف متعلق أفعل التفضيل في المواضع السابقة يفيد إطلاق المعنى في اسم التفضيل إلى ما يليق بعلم الله تعالى بكل شيء علناً أم سراً أم أخفى من السر ، وذلك في الموضع الأول ، أما في الموضعين الثاني والرابع ففيهما التفضيل المطلق في معنى البقاء لله تعالى ولرزقه سبحانه ، وفي الموضع الثالث بيان شدة عذاب الآخرة وبقائه ، وهو ما لا يقارن به شيء من عذاب الدنيا ولو كثر وطال، ولذا ناسب ذلك حذف المتعلق في هذا كله ، هذا مع ما أحدث من إيقاع جميل في الفواصل .

٣- حذف تمييز العدد :

وذلك في قوله تعالى ﴿ عليها تسعةَ عشرَ ﴾(المدثر : ٣٠) والفواصل في هذه السورة أكثرها رائية ، وهي في موضع الآية "سقر،لا تذر ، للبشر ، تسعة عشر، للبشر" ولذا حذف التمييز وهو "ملكاً"لإيقاع الفاصلة أولاً ، ثم إن في حذفه بلاغة جميلة ، وهي الإشعار بشيء من الإبهام في شأن هؤلاء الحراس والخزنة لتذهب النفس في تصور قوتهم كل مذهب ، والله أعلم .

***

الهوامش

١- الخصائص :٢/ ٣٦٢ . ٢- دلائل الإعجاز :١٠٦ ط دار المعرفة بيروت .
٣- نفسه :١١٢ .
٤- نفسه :١١٢ .
٥- د/ عائشة عبد الرحمن الإعجاز البياني للقرآن :٢٦٩.

سادساً : الإعـراب والفـاصلة

علاقة النحو بالبلاغـة قديمـة قـدم العلمـين معـاً، فالبلاغـة كـما أسموها هي النحو العالي ، إنها قمة الخبرة بالتراكيب ودلالاتها معاً ، والإعراب بلا شك صلب النحو العربي ونشاط من أنشطته البـارزة، ولسنا ننظر إلى الإعراب هنا بوصفه أثراً جالباً للحركـة الإعرابيـة في أواخـر الكلـمات فحسـب ، بـل بوصـفه خـبرة بـالنظم والتراكيـب واستعمالاتها ، وهو ما أسماه عبد القاهر بالنظم وبنى عليـه نظريتـه في البلاغة العربية .

وقد أصّل سيبويه رحمه الله قضية ربط الإعراب بالدلالة في كتابه، وأكدّها تأكيداً في مواضع كثيرة منه،إلا أنـه لم يـذهب بهـا إلى المـدى الذي ذهبه من بعده عبد القاهر والزمخشري ، إنه ما يكاد يذكر الرفع في تركيب أو اسم – على سبيل المثال – حتى يجيز فيه النصب بناء على مروياته عن العرب الثقـات أو اعـتماداً عـلى أقـوال شـيوخه أو عـلى تقديراته العقلية وحسّه اللغوي ، ومع كل تقدير يتغير المعنى ، ولكنه قلما كان يشير إلى الفوارق الدلالية بين حالة إعرابيـة وأخـرى تاركـاً ذلك إلى خبرة القارئ .

والمعنى دائماً تبع للحالة الإعرابيـة ، وقـديماً قـالوا : إن الإعـراب فرع المعنى ، وربما أدى تغيير الحركة الإعرابية إلى فساد المعنـى كـما في المسألة المشهورة عند النحاة في قوله تعالى ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (التوبة : ٣) فمن قرأ بجر "رسول" متعمداً كفر لأنه يعطفـه عـلى المشركين، والصواب فيه الرفع على أنه خبر مبتـدأ محـذوف ، ومـن ذلـك قـول امرئ القيس :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال

قال سيبويه :" فإنما رفع لأنـه لم يجعـل القليـل مطلوبـاً،وإنما كـان المطلوب عنده الملك ، وجعل القليل كافياً،ولو لم يـرد ذلـك ونـصب لفسد المعنى "[1].

ولا شـك أن الفاصـلة القرآنيـة بإعرابهـا وأصـواتها تـأتي نتيجـة التركيب اللغوي للجملة ، وأنه لجعلها على صورة ما توافـق الإيقـاع لا بدّ من مراعاة دورها في التركيب ، والقرآن الكريم يطـوع العربيـة لاستعمالاته فيأتي بالمعجز البديع من البيان ، ومنه الفواصل .

وسوف نكتفي هنا بشواهد على علاقة الإعراب بالفاصـلة وأثـره في صياغتها ودلالتها ، ومن ذلك :

١ - التوطئة للفاصلة بما يمنع الفعل من النصب :

قلنا إن كثيراً من الفواصل القرآنية جاءت بصورة الفعل المـضارع المرفوع المسند إلى واو الجماعة بصيغتي " تفعلـون ويفعلـون " ولكـي يتحقق الإيقاع بالمدّ والترنّم ينبغـي أن يبقـى الفعـل مرفوعـاً بثبـوت النون، وحين يأتي الفعل في سياق كان حقـه فيـه النـصب كـما اعتـاد العرب استعماله تأتي في التركيب توطئة تمنع الفعل من النصب ، ومن ذلك :

-﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(البقرة :١٨٧)

- ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾(الأنعام : ٦٥)

-﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(الأعراف :١٧٦)

ولو قيل في الأولى ليتقوا لانتصب الفعل وذهـب الإيقـاع ، ولـذا وطّئ لرفعه بلعل التي تفيد الرجاء عادة وتمنـع الفعـل مـن النـصب بجعله مع فاعله في محـل رفـع خـبراً لهـا، وهـذه الـصورة تتكـرر في الفواصل كثيراً، وقد راجعت مواضع استعمال "لعل" بهذه الـصورة

المذكورة فوجدتها كثيرة ، بل إن استعمال " لعل " بهذه الصورة هو الشائع في استعمالها في القرآن الكريم [٢] ".

وقد تكرر لعل في الفاصلة لهذا السبب نفسه ، ومن ذلك :

-﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف :٤٦)

-﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (يوسف :٦٢) قال الكرماني: " كرر لعل رعاية لفواصل الآي ، إذ لو جاء بمقتضى الكلام لقال :"لعلي أرجع فيعلموا ، بحذف النون على الجواب "[٣].

وقد يُخالَف الاطراد الإعرابي في فاصلة ما لتحقيق الإيقاع وزيادة فائدة دلالية في سياقها، ومنه قوله تعالى في أهل الكتاب ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ (آل عمران :١١١) .

حيث جاء الفعل "ينصرون" مرفوعاً محققاً الإيقاع مع ما سبقه وماتلاه من الفواصل ، ولكنه معطوف على فعل مجزوم هو جواب الشرط "يولوا " وكان حقه الجزم مثله بقياس النحاة، ولكنه ورد مرفوعاً ، وفي علة ذلك يقول الزمخشري:"فإن قلت:هلاّ جُزم المعطوف في قوله"ثم لا ينصرون"؟ قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء ، كأنه قيل :ثم أخبركم أنهم لا ينصرون ، فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى ؟ قلت : لو جزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم كتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً " [٤] فالفعل بهذه الصورة حقق إيقاعاً في فاصلته، وأعطى دلالة جليلة القدر ، وهذا من كمال بلاغة القرآن الكريم لمن يتذوق أسرار البيان الرفيع .

٢-التوطئة للفاصلة بما يعمل الرفع أو النصب :

إذا كانت الفواصل مرفوعة مُهِّد للفاصلة بما يعمل الرفع ، وإذا كانت منصوبة مهّد لها بما يعمل النصب ، هذا مع أن التركيب اللغوي قد يكون واحداً في الفاصلة كأن تكون "غفور رحيم" بالرفع أو "غفوراً رحيماً" بالنصب ، فالمعنى فيهما واحد ، ولكن الإيقاع مختلف ، فالرفع حالة سكون ، والنصب فيه التنوين ثم الوقف عليه فيصير حرف مدّ ، وحين تكون فواصل السورة ساكنة كالنون والميم يأتي الرفع مثل :

-﴿ إن اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ (البقرة :١٩٢) .

-﴿والله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (الأنفال :٧٠)

وحين تكون فواصل السورة منصوبة يستعمل القرآن إمكانات النصب المتعددة في العربية لتحقيق النصب في الفاصلة ، ومنه :

-﴿إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ (النساء :٤٣)

-﴿وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (الأحزاب :٥٩)

والفعل كان من الأفعال المساعدة في العربية ، وهو يفيد في هذا السياق الاستمرار، ولكنه أُدخل في التركيب لمراعاة الفاصلة حيث يعمل النصب في الخبر الواقع فاصلة حين تكون الفواصل منصوبة .

وفواصل سورة النساء أكثرها منصوب ، وللنصب عوامل متعددة ، منها النصب على أنه خبر كان أو مفعول به أو مفعول لأجله أو مصدر أو تمييز ... إلخ ، وتستأثر كان بالنصيب الأكبر في نصب الفاصلة في القرآن الكريم ، وفي سورة النساء نصبت الفاصلة بكان (خبراً لها) في (٥٦) موضعاً من مجموع فواصل السورة وهو (١٧٦) أي بنسبة ٣٩٪ تقريباً من فواصل السورة ، وسنجد ذلك

كثيراً أيضاً في فواصل سور الكهف ومريم والأحزاب والفرقان والفتح مما ورد منصوباً منوناً .

٣- الفاصلة بين الاسمية والفعلية:

فرق البلاغيون بين الخبر الاسمي والخبر الفعلي ، فرأوا أن الخبر الاسمي عادة يفيد الثبات ، والفعلي عادة يفيد التجدد والاستمرار ، ففي قوله تعالى ﴿**وكلبُهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد**﴾ (الكهف:١٨) جاء الخبر " باسط" اسمياً ، قال عبد القاهر :" إن أحداً لا يشك في امتناع الفعل هاهنا،وإن قولنا:"كلبهم يبسط ذراعيه "لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً "(٥).

وعلى هذا الأساس من التفريق بين الخبر الاسمي والفعلي سنجد الفواصل التي ترد بلفظ " لعلهم يتذكرون أو يفقهون أو يعلمون أو يرشدون أو يهتدون...إلخ "سنجدها بصورة الفعل الذي يقتضي تجدداً ومزاولة للوصول إلى التذكر أو الفقه أو العلم...إلخ،في حين يأتي الخبر الاسمي في الفواصل دالاً على الثبوت،ومنه ﴿**فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون**﴾(البقرة : ١٣٢) فلا شك أن وضع "تسلمون " مكان " مسلمون " غير ممكن في هذا السياق لأنه يفيد تأخير الإسلام إلى وقت الموت، وهو غير مراد في السياق، أما الخبر الاسمي فيفيد الإتصاف بالإسلام في كل حين حتى يأتي الموت.

ولننظر في الفرق بين الخبرين في قوله تعالى :

-﴿**بل الذين كفروا يكذبون**﴾ (الانشقاق :٢٢)

-﴿**بل الذين كفروا في تكذيب** ﴾ (البروج :١٩)

إن الفواصل في سورة الانشقاق في موضع الآية هي "يكذبون، يوعون ، أليم ، ممنون " والفواصل في سورة البروج "تكذيب،محيط، مجيد ، محفوظ " وكل فاصلة حققت الإيقاع في سياقها لا ريب ، لكن لكل فاصلة دلالة سياقية لا تؤديها الفاصلة الأخرى مع ذلك ، فالحديث في الانشقاق عن كفار مكة على وجه الخصوص بدلالة ما قبله ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ (٢٠-٢١) .

لقد أفاد التعبير بلفظ الفعل تجدد التكذيب منهم وقتذاك،لكنه لا يثبته لهم بصورة نهائية تبقى إلى يوم الدين إذا عبر عن ذلك بالخبر الاسمي كما في الحديث عن الأمم المكذبة المهلكة من قبل الواردة في سورة البروج ، ولذا عبرّ في البروج بلفظ الاسم لأنهم كذبوا وهلكوا بتكذيبهم إلى يوم الدين، فناسب التعبير عن ذلك بالاسم الدال على الثبوت،، ولكنه مع أهل مكة عبر بلفظ الفعل لأنه علم سبحانه أنهم لن يثبتوا على ذلك أمداً طويلاً ، وهو ما تحقق فعلاً حين دخل أهل مكة في دين الله أفواجاً ، وهذا من معجزات القرآن .

٤-التكرار اللفظي في الفاصلة وإعرابه :

ونختم هذا المبحث بالنظر في إعراب الألفاظ المكررة في الفواصل وظاهرة التكرار إحدى الظواهر البارزة في العربية، والعرب تكرر الحرف واللفظ والجملة ...غير أنا نخص بالدرس من ذلك الألفاظ المكررة في الفاصلة للتوكيد أو لغيره من المعاني، ولا نعني بالمكرر هنا أن يتكرر لفظ الفاصلة في آيات متتالية ، فقد سبق ذكر هذا تحت مصطلح الإيطاء ، ولكن نعني به أن يتكرر لفظ الفاصلة بنفسه ، وذلك قليل في الفواصل ، وقد أحصيت منه :

١ -﴿والسابقون السابقون . أولئك المقربون﴾ (الواقعة : ١٠-١١) قال العكبري:"الأول مبتدأ والثاني خبره ، أي السابقون بالخير السابقون إلى الجنة ، وقيل الثاني نعت للأول أو تكرير توكيداً "[٦] والراجح كونها توكيداً لفظياً والخبر الجملة الاسمية بعدها ، وذلك لتوكيد معنى السبق وفضل السابقين .

٢- ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ (الواقعة :٢٥-٢٦) والمعنى هنا على التكرار أي " يسلمون سلاماً بعد سلام "[٧]فالتكرار هنا أفاد أن السلام يتكرر قوله وسماعه كثيراً في الجنة ، وأفاد مع هذا جمالاً في الإيقاع يلذّ للسمع .

٣-﴿كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً.وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾ (الفجر :٢١-٢٢) ليس الدك والصف هنا تكراراً للتوكيد كما ذهب بعض النحاة إذ ليس الثاني لتكرير ما سبق ، بل هو لتكرير المعنى ، لأن الثاني غير الأول معنى "[٨] .

ونقل العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد عن بعضهم أن هذا ليس من باب التوكيد اللفظي، لأن شرطه أن يدل اللفظ الثاني على ما يدل عليه اللفظ الأول،والأمر في الآيات ليس كذلك ، فإن الدك الثاني غير الدك الأول ، والمعنى:دكاً حاصلاً بعد دك ، وهؤلاء رأوا أن اللفظين معاً حال كقولهم جاءوا رجلاً رجلاً [٩] وهذا الفهم ينتج من تدبّر المعنى؛إذ يفيد تكرار الدك، وتعدد الصفوف للملائكة، فالثاني غير الأول حقيقة ، ولذا أعربه مكي بن أبي طالب حالاً ليس غير[١٠] ومع هذا يؤدي التكرار في الفاصلة جمالاً إيقاعياً خاصاً يزيد المعنى قوة بتكرار اللفظ نفسه ، وهو أمر تعرفه العربية .

***

الهوامش

١ - الكتاب :١/ ٧٩.
٢ - انظر : معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم :٥٠١ وما بعدها .
٣- البرهان في توجيه متشابه القرآن :١١٢.
٤ - الكشاف :١/ ٤٠١.
٥ - دلائل الإعجاز :١٢٤.
٦ - إملاء ما منّ به الرحمن : ٥٤٩.
٧- الكشاف : ٤/ ٤٦٠.
٨- شرح الكافية :١/ ٣٣٥.
٩ - انظر :هامش شرح ابن عقيل :٢/ ٢١٤-٢١٥.
١٠ -انظر مشكل إعراب القرآن :٢ / ٨١٧، بيروت ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

سابعاً : ائتلاف الفاصلة مع مضمون آيتها

اتفق نقاد الشعر والنثر على وجوب أن تكون القافية وآخر السجعة مطابقة لمضمون البيت أو الجملة المسجعة ، فإذا جاءت مجتلبة للتوافق الصوتي دون حاجة السياق إليها عُد ذلك عيباً فيها ، ذلك أن الفاصلة والسجعة تأتيان آخر الجملة ، وآخر الجملة لا بد أن يحمل مضموناً مطابقاً لمضمون ما قبله ، ليكون الكلام متناسقاً غير متنافر ولا شاذ ، وعنون قدامة بن جعفر في نقد الشعر فصلاً بعنوان"نعت ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت" ومعناه عنده أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت وملائمة لما فيه من معان .

ومن ذلك عنده ما سماه " التوشيح " وعرفه بقوله :" وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ، ومعناها متعلقاً به ، حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أول البيت، عرف آخره وبانت له قافيته، مثال ذلك قول الراعي :

وإن وُزن الحصى فوزنتُ قومي وجدتُ حصى ضريبتهم رزينا

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت وقد تقدمت عنده قافية القصيدة استخرج لفظ قافيته ؛لأنه يعلم أن قوله : وُزن الحصى سيأتي بعده رزين ، لعلتين: إحداهما أن قافية القصيدة توجبه،والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه ...وذكر كذلك مصطلح الإيغال من هذا اللون ، وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون للقافية فيه صنع،ثم يأتي بها لحاجة الشعر في أن يكون شعراً إليها ، فيزيد بمعناها في تجويد ما ذكره في البيت،كما قال امرؤ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرْحُلِنا الجزعُ الذي لم يثقّبِ

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة بالجزع،ثم لما جاء بالقافية أوغل بها في الوصف ووكده ، وهو قوله : الذي لم يثقب ، فإن عيون الوحش غير مثقبة ، وهي بالجزع الذي لم يثقّب أدخل في التشبيه"(١) .

وقال البلاغيون في السجعة ما قال قدامة في القافية ، مما ذكرنا في مثاني هذه الدراسة،وذموا من تكلف سجعته ،قال السيوطي :" قال الزمخشري في كشافه القديم: لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، فأما أن يهمل المعاني ويهتم بتحسين الألفاظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة "(٢) فمجرد التوازن الصوتي دون حاجة المعنى إلي اللفظ عيب كبير ، وقد ذمه أرباب الصنعة حتى قال قائلهم ابن الأثير:" وقد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة يجعلون همهم مقصوراً علي الألفاظ التي لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أي وجه كان من الغثاثة والبرودة يعتقد أنه قد أتى بأمر عظيم ، ولا يشك في أنه صار كاتباً مفلقاً"(٣) .

وقد جاءت الفواصل القرآنية متآلفة تمام التآلف مع آياتها ، مؤدية دورها في إتمام المعنى وإيصاله على نحو بديع معجز ،حتى لو تكلف متكلف أن يستبدل الفاصلة بغيرها ما استطاع وما وجد غيرها يؤدي المعنى والإيقاع معاً ، فالفاصلة إذن إحدى صور الإعجاز في بيان القرآن الخالد، قال الزركشي:" اعلم أن من المواضع التي يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره ، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولاً وإلا خرج بعض الكلام عن بعض ، وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك لكن

منه ما يظهر ، ومنه ما يستخرج بالتأمل للبيب "(١) ثم قسمها - حسب مصطلحاتهم - إلى أربعة أنواع : التمكين والتوشيح والإيغال والتصدير، ولست أراني ملزماً بتقسيم المبحث إلى هذه الأنواع،وإنما سنذكر ذلك مجملاً .

وقد ذكرت في تعريف الفواصل أنها نوعان:نوع منها تكون فيه كلمة الفاصلة جزءاً من بنيان الآية وذلك في الآيات القصار عموماً ، ونوع تكون فيه الفاصلة جزءاً من تركيب جملة نحوية تأتي في آخر الفاصلة ، ومثال الأولى ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ و﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ومثال الثانية﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ (النساء:٨٤-٨٥) فلفظ" تنكيلاً " جزء من جملة تامة في نهاية الآية هي ﴿ والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾ وكذلك لفظ "مقيتاً" وقع خبراً لكان في جملتها التامة في نهاية الآية وهذا الجزء المتمم للآية أو الجملة الأخيرة فيها هنا هو المراد بهذا المبحث وهو الذي عددناه نوعاً من نوعي الفاصلة .

إن هذه الجملة الأخيرة لا بد لها من التوافق الدلالي والإيقاعي مع ما قبلها وما بعدها ، وهو ما سماه البلاغيون بائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه مضمون الآية .

قال ابن أبي الإصبع " وهو أن يمهد الناثر لسجعة فقرته ، والشاعر لقافية بيته تمهيداً تأتي به القافية متمكنة في مكانها مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها،غير نافرة ولا قلقة،متعلقاً معناها

بمعنى البيت كله تعلقاً تاماً"[٥] وإذا اشترطوا هذا في كلامهم فهو في القرآن أبلغ وأبدع ، كما سنرى .

والقرآن يختار الفاصلة بدقة عجيبة تدل على إعجاز بياني ، فهي من جهة الدلالة تتوافق مع مضمون الآية ، ومن جهة الصوت تتوافق مع الإيقاع العام للآيات السابقة واللاحقة حتى إن السامع إذا كان ذا نظر ثاقب بفن الكلام وسمع الفاصلة أدرك موقعها من الكلام كما رووا أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٠٩) فقرأ ﴿ أن الله غفور رحيم ﴾ ولم يكن يقرأ القرآن ، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء عليه "[٦] .

وسنذكر ها هنا شواهد لذلك لأن بحث القرآن كله على هذا المنوال غير ممكن عملياً في هذه الدراسة وإنما نمثل بالجزء للكل،ومن ذلك :

١ -﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة :٢٦-٢٧) .

ختمت الآية الأولى بالاستفهام الإنكاري "أفلا يسمعون" لمناسبة ذلك لمضمون الآية ، ذلك أن أخبار القرون من قبلنا أخبار تتناقلها الألسن والأسماع على مدار التاريخ، وتسجيلها كتابة إنما هو لحفظها من الضياع ، وختمت الآية الثانية بقوله " أفلا يبصرون" موافقة لمضمون الآية كذلك، إذ إنهم يرون الماء ينزل من السماء فيساق إلى الأرض الجرداء فيخرج الله به الزرع منها ثم إنهم يذهبون

ليأكلوا هم وأنعامهم ... أفلا يبصرون إذن نعمة الله تعالى تتحقق أمام أعينهم يوماً بيوم ؟

٢-﴿ أفحكمَ الجاهلية يبغون ومَنْ أحسنُ من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (المائدة : ٥٠) قال ابن أبي الإصبع :" إن المعنى قد تم بقوله ﴿ومن أحسن من الله حكماً ﴾ ولما احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب ما قبلِها وما بعدها أتت تفيد معنى زائداً لولاها لم يحصل ، وذلك أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا من أيقن أنه واحد حكيم عادل ليبقى توحيده الشريك في الحكم الذي انفرد به ، ولم يكن له معارض فيه ولا مناقض ، ويحصل من حكمته وضع الشيء في موضعه ، وينفي العدل عنه الجورَ في الحكم، ثم عدل عن قوله (لقوم يعلمون ﴾ إلى قوله ﴿لقوم يوقنون ﴾ ليكون علمهم بربهم على قطع ويقين "[٧] .

٣- وسمى البلاغيون ذلك بأسماء منها التمكين ،ومثلوا له بقوله تعالى ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ (هود :٨٧) قال ابن أبي الإصبع : " لما تقدم في الآية ذكر العبادة وتلاه ذكر التصرف في الأموال اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب لأن الحلم : العقل الذي يصح به تكليف العبادات ويحض عليها،والرشد:حسن التصرف في الأموال"[٨] قلت:هم وإن كانوا قد قالوا له ذلك على سبيل الاستهزاء به فقد جاءت الفاصلة مع ذلك ملائمة لمضمون ما قالوه كما ذكر.

٤- ومن مسمياتهم لهذا اللون أيضاً الإيغال ، ونقله ابن أبي الإصبع عن قدامة فقال :" هو أن يستكمل المتكلم معنى كلامه قبل أن يأتي بمقطعه ، فإذا أراد الإتيان بذلك أتى بما يفيد معنى زائداً على

معنى ذلك الكلام ، ومنه ﴿ولا تُسمِعُ الصمَّ الدعاءَ﴾ (النمل: ٨٠) ثم علم عز وجل أن الكلام يحتاج إلى فاصلة تماثل مقاطع ما قبلها وما بعدها ، فأتى بها تفيد معنى زائداً على معنى الكلام حيث قال ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ثم ذهب يحلل بلاغة الفاصلة فأطال الكلام بما حاصله أن التولي يكون بجانب دون جانب كالإعراض ، ولكن هؤلاء تولوا مع إدبار حتى لا تصل إليهم الرسالة من أي جانب ، فلم يسمعوها ولم يروها...»[٩].

٥- ولقد كان بعض بلغاء العرب ممن لهم علم بمواقع الكلام يدركون الفاصلة قبل تمامها ، كما روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب أنه لما نزلت ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ من سلالةٍ من طينٍ ﴾ الآيات ...قال : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزل ختامها ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون :١٢- ١٤)[١٠].

٦- وفي سورة الأنعام ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٩٧-٩٨) ختمت الأولى بالعلم لأن تحصيل مضمون الآية يقتدي التعلم وممارسة ذلك وتجربته والإحاطة بمواقع النجوم وحركاتها ، وختم الثانية بالفقه لأن الفقه أمر يحصل بعد التعلم والتدبر والتفكر في أحوال الخلق وأطواره المتعددة ، فناسبت كل فاصلة مضمون آياتها .

٧- ومن ذلك قوله تعالى في قوم صالح حين حذرهم من التعرض لناقته:

أ- ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف :٧٣)

ب- ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ (هود :٦٤)
ج-﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(الشعراء :١٥٦)

حيث ختمت كل آية بما ذكر موافقة لفواصلها في كل سورة ، ولكن لكل ختام مناسبة لموضعه ، قال الكرماني :"إنه في هذه السورة-الأعراف - بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال﴿ عذاب أليم ﴾ وفي هود لما اتصل بقوله ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ وصفه بالقرب فقال﴿عذاب قريب﴾ وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ (١٥٥) فالتقدير: لها شرب يوم معلوم ، فختم الآية بذكر اليوم فقال ﴿عذاب يوم عظيم﴾ "(١٠) وهذا من بديع إعجاز القرآن الكريم ودقته في مراعاة السياق، واختيار الفاصلة المناسبة لمضمون كل آية .

٨- وفي سورة الرعد﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣-٤) .

ختمت الأولى بالتفكّر والثانية بالعقل ، لأن التفكر يؤدي إلى العقل وذلك أن مضمون الآية الأولى عام يدركه كل إنسان بسهولة أما مضمون الثانية فيحتاج إلى تدبر وروية فيما يزرع في أرض واحدة ويسقى بماء واحد وينبت في أشجار متقاربة ثم هو يختلف طعمه من شجرة إلى أخرى بل في الشجرة الواحدة تختلف الطعوم ... كل ذلك يؤدي - إن تدبره الإنسان - إلى العقل والحكمة ، فناسبت كل

فاصلة مضمون آياتها ... قال الكرماني "إن بالتفكر في الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلاً عليه فهو الأول المؤدي إلى الثاني "(١٢).

٩- في سورة إبراهيم ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١١-١٢) ختمت الأولى بالإيمان لأنه أسبقَ من التوكل ، والتوكل صفة من صفات المؤمنين قال تعالى ﴿وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (الشورى :٣٦) فبدأ بالأصل وثني بالفرع ، والله أعلم .

١٠-﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الحاقة :٤١-٤٢) قال السيوطي :"ختم الأولى بتؤمنون والثانية بتذكرون،ووجهه أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لا تخفى على أحد ،فقول من قال شعر كفر وعناد محض فناسب ختمه بقوله ﴿ قليلاً ما تؤمنون﴾ وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع فيحتاج إلى تذكر وتدبّر لأن كلاً منهما نثر فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر ، وإنما تظهر بما في تدبر القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع ... فحسن ختمه بقوله ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ "(١٣).

١١- وفي سورة القصص﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧١-٧٢) ختمت الأولى بالسماع لأن الله تعالى ذكر فيها أنه لو جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة فلا أحد غيره يستطيع أن يأتيهم بضياء ...ولما كان الليل

ظرفاً للظلام ولا مجال فيه للرؤية إذا سحب الضياء ناسب ختمه بالسمع لأنه الممكن في حالة الإظلام وختم الثانية بالبصر لأنه تحدث عن قدرته على جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة،والنهار محل الإبصار، فناسبت كل فاصلة مضمون آياتها .

١٢- وقد يُراعي في بحث الفاصلة مناسبة نزول الآيات كما في قوله تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال :٤٩) حيث السياق في ذكر أحداث غزوة بدر ، حين خرج المسلمون وهم ثلاثمائة وبضعة عشرَ وعدوهم قريب من الألف ، فقال المنافقون : غر هؤلاء دينهم ... ولكنهم إنما خرجوا بأمر الله متوكلين عليه وعلى وعده بالنصر فناسب ختام الآية بالعزة والحكمة ، إذ العزة إشعار بالنصر ، والحكمة إشعار بأن الله تعالى يدبر كل أمر بدقة وحكمة بالغة سبحانه .

١٣- ونختم هذا المبحث بفاصلة أثارت نقاشاً عند البلاغيين ، وذلك في قوله تعالى ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(المائدة :١١٨) ذلك أن المناسب - فيما قالوا - للمغفرة ذكره المغفرة في نهاية الآية،وقد جعلها السيوطي "من مشكلات الفواصل" وذكر في حكمته أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه،فهو العزيز أي الغالب،والحكيم هو الذي يضع الشيء في محله"(١٤) .

ووجه الحكمة في هذه الفاصلة - والله أعلم - أن الله تعالى ذكر قبلها كفراً صُراحاً من أتباع عيسى حين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، وقد تبرّأ عيسى على الملأ من فعل هؤلاء المغضوب عليهم ، وفوض الأمر فيهم إلى الله تعالى ، ذلك أن الأنبياء والمؤمنين ممنوعون

شرعاً من الاستغفار للمشركين ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (التوبة:١١٣) ولذا لم يستغفر عيسى لهؤلاء الكافرين ، وفوض الأمر فيهم لله تعالى لأنه هو العزيز الحكيم ، ولذا ناسب ألا تختم الآية بالمغفرة ، وأن تختم بالعزة والحكمة .

إن ختام الآية إذاً ومناسبته لمضمونها وجه من وجوه إعجاز هذا الكتاب الخالد ، وقد مثلنا لذلك بإيجاز ، ولو أنا ذهبنا نستقصي ذلك ونفصّله لاحتاج إلى مجلد كبير، ومحل ذلك فيما أحسب التفسير .

***

الهوامش

١-نقد الشعر : ١٦٨ وما بعدها .
٢-الإتقان : ٢/ ١٣٤ .
٣-المثل السائر : ٢/ ٦٣ .
٤-البرهان:١/ ١٠٧ .
٥-بديع القرآن :٨٩ .
٦-الإتقان :٢/ ١٢٩ .
٧-بديع القرن :٩٢ .
٨-نفسه :٨٩-٩٠ .
٩-نفسه :٩١-٩٢ .
١٠-تفسير ابن كثير :٣/ ٣٨٧ط دار الفكر - بيروت .
١١-البرهان في توجيه متشابه القرآن :٨٤.
١٢-نفسه :١١٤ .
١٣-الإتقان :٢/ ١٣٠- ١٣١ .
١٤-نفسه ٢/ ١٣١.

ثامناً : الفواصل وتصوير اللوحة القرآنية

إن في القرآن لوحات جمالية ناطقة معبرة ، هذا بعض ما توصلت إليه بعد تدبّر لهذا الكتاب الخالد ، واللوحة القرآنية تحديداً مجموعة آيات متتابعات في موضوع واحد ، وهي لوحة تتسم بالحياة والخلود وتعرف طريقها إلى الفطرة، فالفطرة من خلق الله ، والقرآن كلام الله وهما إذن يتلاقيان عندما تسلم الفطرة من الآفات الكثيرة التي تفسدها ، وعندما تصفو النفس والعقل والقلب لتلقي القرآن ، هنالك يُرجى لبذور العلم النافع أن تنبت وتزهر ، وللثمرات أن تكون ناضجات طيبات .

إن اللوحة القرآنية لوحة بديعة حية متحركة نابضة ، ترضي العقل وتشبع الذوق السليم والوجدان المرهف ، وتمتزج فيها العناصر المكونة امتزاجاً بديعاً ، حيث يؤدي كل عنصر دوره في السياق في انسجام تام يجعل جمال اللوحة يتسرب إلى المتلقي، فتؤدي اللوحة - حسب استعداد المتلقي - الغرض المراد منها ، وهو أولاً وآخراً الهداية إلى طريق الحق ، ومن صور الهداية هذه التمتع بجمال القرآن وإعجازه﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (محمد : ٢٤).

والقرآن يعتمد التصوير أساساً من أسس التعبير فيه ، وبعد تدبر لآي القرآن وجدت أن الفاصلة عنصر أساسي من عناصر التصوير باللوحة القرآنية ، حيث إن اللوحة القرآنية بتعريفها الذي قدمت تتبع كل آياتها تقريباً فاصلة واحدة أو فواصل متقاربة الإيقاع،حتى إذا تمت اللوحة وبدأت لوحة جديدة أو موضوع جديد من موضوعات السورة تغيرت الفاصلة، وهي بذلك تدخل عنصراً أساسياً من عناصر تكوين اللوحة القرآنية.

وهذه اللوحات تعتمد الدلالة واللفظ بما يحمله من أصوات وإيقاع عناصر مكونة للوحة ، ويتضح هذا كثيراً في السور المكية القصار على وجه الخصوص، وسنجد أن للوحة القسم- على سبيل المثال - في بدايات هذه السور إيقاعاً خاصاً وفواصل خاصة ، وفي الاستشهاد بذلك لن نكثر من نقل الآيات ، إذ يستدعي ذلك نقل سور كاملة ، ولكنا سنوجز ذلك إيجازاً ، ونشير إلى بعض كلمات الفواصل فحسب ، رغبة في الإيجاز ودفعاً إلى مراجعة ذلك في المصحف لزيادة الفائدة والثواب إن شاء الله.

ومن اللوحات التي شاركت الفواصل في تصويرها :

١- تبدأ سورة نوح بإخبار الله عز وجل أنه أرسل نوحاً إلى قومه ثم يقصّ طرفاً من خطاب نوح إليهم في الآيات(١-٤)وفواصل هذه الآيات " أليم ، مبين ، أطيعون ، تعلمون" وفيها كان الخطاب مباشراً من نوح إلى قومه ، ولكنهم كذبوه ولم يجد منهم إجابة لدعوته ، ولذا اتجه إلى ربه بالخطاب شاكياً مناجياً، وهنا تتغير الفاصلة ﴿ قال ربِّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ (٥) ويستمر ذلك الخطاب إلى نهاية السورة ويتبع فاصلة واحدة هي الألف المنصوبة المنونة التي تتحول إلى حرف مد بالوقف على التنوين ، فيناسب حرف المد هذا جوّ الشكوى والمناجاة والحزن !! وتساعد الفاصلة في رسم اللوحة ونقل الصورة كاملة ، وهذا بلا شك لون من ألوان الإعجاز في هذا الكتاب الخالد .

٢- وسورة المدثر تبدأ بنداء الله تعالى رسولَه ﷺ وإسداء بعض الأوامر والنواهي إليه في الآيات(١-٧) ونجد الفواصل في هذه اللوحة تنتهي براء قبلها حرف متحرك مع تقارب في الوزن، ومنها " المدثر ، أنذر ، كبّر ، طهّر..." فإذا تغيّر الموضوع ، وبدأت لوحة

جديدة بانتقال الحديث إلى تصوير بعض أحوال الآخرة تغير إيقاع الفاصلة فصارت راءً قبلها حرف مدّ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (٨-١٠) فإذا انتهت اللوحة الأخروية وبدأت لوحة تهديد ووعيد للمكذبين تغيرت الفاصلة أيضاً في ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ (١٢) وما تلاها من آيات، وهكذا تشارك الفاصلة في رسم هذه اللوحات البديعة .

٣-وسورة القيامة تبدأ بلوحة القسم وما يتصل به، ويستغرق ذلك ست آيات بفاصلة واحدة هي الهاء المسبوقة بالميم أو النون المسبوقين بالمدّ في " القيامة ، اللوامة ، عظامه،بنانه،أمامه ،القيامة" وحين يتغير الموضوع وتأتي لوحة أخروية جواباً على سؤال من مكذب عن يوم القيامة تتغير الفاصلة فتكون راء قبلها حرف متحرك في﴿ فإذا برق البصر. وخسف القمر.وجمع الشمس والقمر﴾ (٧-٩) ويتوالى الإيقاع بالفاصلة نفسها حتى الآية الثالثة عشرة حيث تنتهي اللوحة القرآنية وتبدأ لوحة جديدة بموضوع جديد فيتغير إيقاع الفاصلة كذلك في﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ (١٤) وما بعدها من الآيات حتى الآية التاسعة عشرة ، ثم تبدأ لوحة أخرى(٢٠-٢٥) بفاصلة واحدة هي الهاء وزنة واحدة هي وزن (فاعلة) في العاجلة ،الآخرة ، ناضرة ، ناظرة ، باسرة ، فاقرة "حتى إذا بدأت لوحة جديدة تصور حالة الموت تغيرت الفاصلة كذلك في ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾ (٢٦) وتستمر فاصلة القاف حتى انتهاء اللوحة في الآية الثلاثين، ثم تبدأ فاصلة جديدة بموضوع جديد إلى آخر السورة هي فاصلة الألف المقصورة، وهكذا نجد السورة مجموعة موضوعات أو لوحات متتالية، وأكثر ما يحدد معالمها ويصور حدودها الفاصلةُ المتبعة فيها !

٤- وسورة المرسلات تبدأ بلوحة قسم يتلوه جوابه ، ونجد لوحة القسم بفاصلة واحدة هي الألف المنونة في"عرفاً ،عصفاً ، نشراً فرقاً ،ذكراً ، نذراً" هذا مع وجود التسجيع في الأولين والأخريين ، وتقارب زنة الفواصل ، كل هذا يعطي إيقاعاً مميزاً تستهل به السورة،فإذا جاء جواب القسم تغيرت الفاصلة في﴿ **إنما توعدون لواقعٌ** ﴾ (٧)ثم تأتي لوحة حديث عن الآخرة فتتغير الفاصلة كذلك في الآيات (٨-١٢) فتكون تاء تأنيث مفتوحة ساكنة .

٥- وقد تكون اللوحة في صورة تهديد ووعيد حتى إذا انتهت بفاصلتها وبدأت لوحة أخرى أو موضوع جديد تغيرت الفاصلة ، ومن ذلك بداية سورة النبأ (١-٥) حيث بدأت بفاصلة النون قبلها المد أعقبتها الميم مع مدها ثم النون إلى آخر اللوحة،حتى إذا بدأت الآيات في سرد يعض نعم الله تعالى وما يتلوها من تصوير أحوال الآخرة تغيرت الفاصلة فصارت ألفاً منونة هي حرف المد بالوقف حتى نهاية السورة .

٦- وَتأتي لوحة القسم بفواصل متعددة في أول سورة النازعات، لكنها جميعاً تنتهي بالألف المنونة المنصوبة التي تتحول بالوقف إلى حرف مدّ يوحدها صوتياً في الآيات(١-٥) وهي " غرقاً ، نشطاً ، سبحاً ، سبقاً ، أمراً " هذا مع اتحادها في الوزن الصرفي مما يزيد الإيقاع جمالاً ، فإذا انتهت لوحة القسم محذوفة الجواب - وهو لون بلاغي ليس ثم مجال تحليله - وبدأت لوحة تصوّر أحوال الآخرة بدأت فاصلة جديدة هي الهاء في الآيات (٦-١٤) فإذا انتهت وبدأ طرف من قصة موسى عليه السلام بدأت فاصلة جديدة هي الألف المقصورة (١٥-٢٦) وتنتهي قصة موسى بفاصلتها ويبدأ السؤال ﴿ أأنتم أشدُّ خَلْقاً أم السماءُ بناها ﴾(٢٧) فتتغير معه الفاصلة في

الآيات (٢٧-٣٢) لتأتي فاصلة واحدة بميم ساكنة في ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾(٣٣) ثم تبدأ لوحة أخروية بفاصلة جديدة هي الألف المقصورة (٣٤-٤١) حتى إذا جاء الجواب لمن سأل عن الساعة جاء بفاصلة جديدة كذلك (٤٢-٤٦)وهكذا تتابع موضوعات السورة في شكل لوحات خالدة تتشكل معالمها من الدلالات والإيقاع الذي يعتمد الفاصلة أساساً من أسسه المتعددة .

٧- وسورة عبس تبدأ بفاصلة واحدة هي الألف المقصورة (١-١٠) لأن الآيات ذات موضوع واحد هو ذكر حديث الأعمى الذي جاء رسولَ الله ﷺ فتشاغل عنه زماناً بدعوة صناديد قريش فعاتبه الله تعالى في ذلك ، فإذا انتهى الموضوع وبدأ آخر تغيرت الفاصلة ﴿كلا إنها تذكرة ﴾ (٧) وتستمر الفاصلة هاء حتى الآية (٢٤) تتلوها فاصلة الألف المنونة(٢٥-٣١) في موضوع واحد هو بيان تدرّج الرزق من إنزال الماء فإنبات الزرع ...ثم تأتي فاصلة الميم الساكنة التي رأيناها وحيدة كذلك في سورة النازعات﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ (٣٢) فإذا بدأت لوحة أخروية مهدِّدة متوعِّدة تغيرت الفاصلة لذلك فصارت هاء (٣٣-٤٢) هذا مع تنوع في إيقاع الفاصلة كذلك في هذه الآيات لتنوع الحديث الداخلي في اللوحة الواحدة، فصورة الفرار من الأهل﴿ يوم يفر المرء من أخيه.وأمه وأبيه.وصاحبته وبنيه ﴾ ذات فاصلة واحدة ولكن إيقاعها غير إيقاع الآيات التالية التي تصور مآل المؤمنين ﴿ وجوه يومئذٍ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ﴾ ويتغير الإيقاع حين نرى صورة الكافرين ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ إنه إعجاز بديع في التصوير باللوحة الواحدة كذلك ، إنها

ذات فاصلة واحدة ، ولكن معالمها الداخلية تتحدد بإيقاعات خاصة من خلال الفواصل !

٨- وسورة التكوير تبدأ بلوحة شرط بديعة قصيرة الآيات متقاربة في الوزن ومع ذلك تلزم اللوحة فاصلة واحدة في كل آياتها هي التاء المفتوحة الساكنة في الآيات (١-١٤) ومن فواصلها اثنا عشر فعلاً مبنياً للمجهول والثالث عشر فعل مطاوعة (انكدرت) وصيغة المطاوعة أشبه شيء بالمبني للمجهول وأقربه منه ، أما الرابعة عشر المبنية للمعلوم فهي جواب الشرط "أحضرت "فإذا انتهت لوحة الشرط وجوابه وبدأت لوحة قسم تغيرت الفاصلة ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (١٥-١٨)فإذا جاء جواب القسم تغيرت الفاصلة فتتعاقب الميم مع النون مسبوقتين بالمدّ حتى آخر السورة (١٩-٢٩) .

٩- وقد تأتي لوحة القسم وجوابه بفاصلة واحدة كما في سورة الانفطار وهي التاء المفتوحة الساكنة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (١-٥) حتى إذا انتهت اللوحة وبدأ موضوع آخر تغيرت الفاصلة .

١٠- وسورة الانشقاق تبدأ بلوحة شرط محذوف الجواب في الآيات (١-٥) ولها فاصلة واحدة هي التاء المفتوحة الساكنة ، ويأتي بعد ذلك تلوين بديع في الفواصل في ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ . فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾(٦-٧) حيث الآيتان بفاصلة الهاء ، والأخيرة منهما نهاية جملة شرطية يأتي جوابها في ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ (٨-٩) وجواب الشرط بفاصلة واحدة وزنة واحدة ، ثم يأتي شرط آخر

لأهل النار بفاصلة كفاصلة الشرط الأول ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ (١٠) ويأتي جوابه بفاصلة كفاصلة جواب الشرط الأول كذلك ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا . وَيَصْلَى سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ . بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ (١١-١٥) وهكذا يتوازن الشرطان بفاصلة واحدة ويتوازن الجوابان بفاصلة واحدة ، فإذا انتهت لوحات الشرط وبدأت لوحة القسم وجوابه تغير الإيقاع والفاصلة ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ . لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ (١٦-١٩) ثم تختم السورة بفاصلة النون مع معاقبة الميم في آخر لوحاتها !

١١- وسورة الغاشية مجموعة لوحات متتابعة تقوم الفاصلة معلماً أساسياً من معالم كل منها ، فتبدأ بالاستفهام عن حديث الغاشية متبوعاً بتصوير حال أهل النار وتستمر بفاصلة واحدة هي الهاء (١-٥) فتأتي آيتان بفاصلة واحدة لبيان طعام أهل النار ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ (٦-٧) ثم تعود تصور حال أهل الجنة فتأتي بفاصلة الهاء كذلك (٨-١٦) ثم تبدأ لوحة جديدة باستفهام إنكاري تحث على التفكر في عظائم المخلوقات ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (١٧-٢٠) وهي لوحة بفاصلة واحدة وزنة للفواصل واحدة وفعل مبني للمجهول فيها جميعاً ، ثم يبدأ موضوع جديد بفاصلة الراء ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ . إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ (٢١-٢٤) وتختم السورة بفاصلة أخرى في ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (٢٥-٢٦) بما فيهما من الوزن الواحد والنمط النحوي الواحد والموضوع الواحد !

١٢- وسورة الفجر تبدأ بلوحة قسم بفاصلة واحدة ﴿ وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴾ (١-٥) فالفاصلة الرائية تختم الآيات مع تقارب زنة كلماتها ، فإذا بدأ موضوع جديد تغيرت الفاصلة في الآيات (٦-١٤) وهي تحكي طرفاً من سيرة عاد وثمود وفرعون فتأتي كلها دالاً ما عدا الآية الثالثة عشرة ففاصلتها باء في "عذاب" ولكن كلمتها متوازنة مع باقي الفواصل،ثم تأتي آيتا شرط في كل منهما شرط وجوابه بفاصلة واحدة﴿ أكرمن،أهانن ﴾ وتمضي السورة على هذا النمط كلما تغير الموضوع تغيرت الفاصلة، وتختم السورة بذكر النفس المطمئنة في ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾(٢٧-٣٠) والملاحظ في هذه السورة تنوع الفواصل وكثرتها بانتقال السياق من موضوع إلى آخر .

١٣- وسورة البلد تبدأ بلوحة قسم بفاصلة واحدة كذلك هي الدال (١-٧) ثم تأتي لوحة النعم بفاصلة واحدة كذلك ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٨-١٠) ثم تتغير الفاصلة بعد ذلك لتغير الموضوع فتأتي هاء حتى نهاية السورة (١١-٢٠)

١٤- وتبدأ سورة الضحى بلوحة القسم والمواساة لرسول الله ﷺ وبيان بعض نعم الله تعالى عليه ، ويتبع ذلك كله فاصلة واحدة هي الألف المقصورة في الآيات (١-٨) فإذا انتهت اللوحة وجاءت لوحة النواهي والأوامر تغيرت الفاصلة فصارت راء مسبوقة بحرف متحرك في " تقهر، تنهر "وثاء في " فحدّث "حيث تنتهي بها السورة.

١٥- وسورة الشرح ثلاث لوحات بثلاثة موضوعات بثلاث فواصل ، الكاف في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ .

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (١-٤) وانتهت لوحة الإنعام ، وجاءت لوحة التثبيت والبشرى فجاءت بفاصلة جديدة ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (٥-٦) وتختم السورة بلوحة التقرب إلى الله بالعمل الصالح بفاصلة جديدة أيضاً ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (٧-٨) .

١٦-وسورة القدر كلها لوحة واحدة هي لوحة ليلة القدر وحدها ، ولذا تستقل السورة بفاصلة واحدة من أجل ذلك هي فاصلة الراء المسبوقة بحرف ساكن وكلمات متوازنة " قدر ، شهر ، أمر ، فجر ".

١٧- وتبدأ سورة العاديات بلوحة قسم ذات فاصلتين مع وجود التنوين فيها جميعاً﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾(١-٣) والفواصل هنا مسجعة متوازنة ، ثم ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ (٤، ٥)بفواصل مسجعة ومتوازنة كذلك ،ثم يجيء جواب القسم بفاصلة واحدة هي الدال في (٦-٨) ، فإذا انتهت لوحة الجواب وبدأت لوحة أخروية تغيرت الفاصلة إلى الراء (٩-١١) .

١٨- وقد ذكرت أن لوحة القسم في بدايات بعض السور تستقل بفاصلة خاصة لأنها تصور موضوعاً خاصاً ، ومن ذلك بداية سورة الصافات حيث تبدأ بفاصلة الألف المنونة (١-٣) ثم تتغير الفاصلة مع الجواب في ﴿ إن الهكم لواحدٌ ﴾ (٤) ومثلها سورة الذاريات حيث تبدأ بلوحة القسم بفاصلة الراء بعدها الألف المنونة (١-٤) ثم يأتي جواب القسم بفاصلة القاف﴿ إنما توعدون لصادقٌ ﴾ (٥) وكذلك لوحة القسم في بداية سور الطور ، حيث تأتي بالراء المسبوقة بحرف المد في (١-٦) ما عدا الآية الخامسة منها ففاصلتها عين

مسبوقة بالمد مع التوازن مع باقي الفواصل ثم يأتي جواب القسم بفاصلة جديدة هي العين﴿ إن عذابَ ربِّك لواقعٌ . ما له من دافعٍ ﴾ (٧-٨) ثم تتغير الفاصلة بعد ذلك بتغير الموضوع .

١٩- وهذا التصوير باللوحة المحددة بالفاصلة قليل في السور الطوال ، لكني وجدت له شاهداً كذلك في سورة مريم نختم به هذا المبحث ، على أنّا سنخرج ها هنا قليلاً عن سمْت الإيجاز فنفصّل القول شيئاً ما في فواصل سورة مريم حيث إن لها إيقاعاً معجزاً خاصاً .

وفي السورة بعد حروف الافتتاح تأتى الفاصلة "زكريّا "بالياء المشددة بعدها الألف الممدودة ، ومن ثم تلتزم أكثر آيات السورة هذه الفاصلة ، وهي تشيع جواً من النغم اللفظي المحبب إلى النفس، ينشأ من النطق بالياء المشددة والألف الممدودة بعدها ، وقد استغل القرآن سعة العربية في ثروتها الكبيرة من الألفاظ والأوزان والصيغ ، استغل ذلك لتركيب الفواصل في هذه السورة وغيرها على هذا النهج المعجز ، بحيث لا نجد لفظاً يلائم الفاصلة غير لفظها.

ومن المعلوم أن صيغة"فعيل" مشتركة بين الصفة المشبهة وصيغ المبالغة ، لكن الفارق بينهما أن الصفة المشبهة فعلها لازم ، وصيغ المبالغة فعلها متعدّ. والقرآن يستعمل هذه الصيغة في فواصل سورة مريم استعمالاً بديعاً ، إذ يستعمل منها نمطاً خاصاً هو " فعيل " المشددة الآخر مثل "خفيّ وشقيّ ووليّ ورضيّ وسميّ ، وصفيّ وشقي " لإجراء الفاصلة بالياء المشددة في آخر الكلمة ثم الألف التي تكون غالباً للنصب ، والنصب كذلك في هذه الكلمات يعتمد على إمكانات العربية المتعددة في إجراء النصب على المفعولية أو التمييز أو الحالية أو المصدرية أو التبعية للمنصوب...إلخ.

والفاصلة في القرآن كما ذكرنا فاصلة منوعة ،إذ لم تأت الفاصلة على حرف واحد في السور الطوال أو القصار إلا في بضع سور أطولها القمر، مع بعض السور في الجزء الأخير من القرآن الكريم، أما الغالب فهو تنوّع الفاصلة ؛ لأن القرآن ليس كالشعر الذي يلتزم قافية واحدة من أول القصيدة إلى آخرها، فمع أن القرآن يقصد إلى الفاصلة قصداً ، ويعتني بها اعتناء خاصاً ، إلا أنها دائماً فيه تبع للمعنى.

وفي سورة مريم كما قلنا تغلب الفاصلة المنتهية بالياء المشددة بعدها الألف الممدودة، ونجد ذلك في قصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى ، حتى إذا انتهت قصة عيسى وجاء التعليق على أحداثها تغيرت الفاصلة ، لنجد بضع فواصل بالواو والنون والياء والميم ، وذلك في موضوع خاص هو التعليق على مزاعم بعض الناس وادعاءاتهم الكاذبة بشأن عيسى عليه السلام وأمه الصدّيقة، وما إن تبدأ قصة إبراهيم بعد ذلك مباشرة حتى تعود الفاصلة إلى ما كانت عليه في القصص السابق ، فكأنها لغة خاصة للقصّ وفواصل خاصة للقصّ،حتى إذا جئنا إلى خواتيم السورة المباركة وجدنا الآيات الثلاث والعشرين الأخيرة منها تنتهي بحرف الدال المفتوحة بعدها ألف النصب ، ماعدا الآيتين "٨١-٨٣" فتنتهيان بالفاصلتين "عزاً و أزّاً " والتكرار فيهما واضح في الزاي المشددة مع الألف ، ثم تنتهي السورة بفاصلة الزاي غير المشددة مع الألف الممدودة في "ركزاً" والألف الممدودة هذه سواء كانت مقصورة كما في " زكريا " أو للنصب كما في باقي الفواصل قاسم مشترك بين الفواصل جميعاً ما عدا الآيات التي ذكرنا في التعليق على قصة عيسى .

والقرآن الكريم يُطوّع اللغة لاستعمالاته،ويستغل الإمكانات الكبيرة للعربية وغناها في صياغة الألفاظ ، فكما رأينا في بداية السورة استعمل صيغة "فعيل " في صورة خاصة منها هي المشددة الحرف الأخير ، وهي على التوالي" خفياً وشقياً و ولياً ورضياً وسمياً " ثم استعمل وزن "فِعِيل " في "عِتياً " و" فَعْل " في " شيئاً " ليؤدّيا النغم الموسيقي نفسه ، ثم عاد إلى " فعيل " الأولى في " سوياً وعشياً وصبياً وتقياً وعصياً " ثم إلى الصفة المشبهة في " حيّاً " وهكذا يستعمل القرآن الإمكانات الهائلة للعربية في الصيغ والأوزان وألوان الإعراب أحسن استعمال وأفضله.

أما الآيات التي خرجت عن هذا اللون من الفواصل في السورة فهي الآيات من "٣٤إلى٤٠ "وهي تمثل لوحة واحدة ذات موضوع واحد.

وقد جاءت الفواصل على التوالي " يمترون ، فيكون ، مستقيم ، عظيم ، مبين ،لا يؤمنون ، يرجعون " فهذه الآيات ذات موضوع خاص غير القصص الذي جرت عليه الفاصلة المعتادة في السورة، وهي تتحدث عن المجرمين الضالين الذين يزعمون أن عيسى ابن الله - تعالى الله عن ذلك - فناسب أن تخرج عن الجو الوجداني الهادئ في لغة القصّ ، إلى جو غاضب متوعّد .

واختلاف الفاصلة هنا ذو بلاغة خاصة ، قد تظهر لنا أو نعجز عن تدبّرها ، إن فيه مخالفة لذلك الجو الهادئ الذي أحسسنا به مع القصص السابق فها هنا كفر بالله تعالى صُراح ، وزعمٌ بأن له ولداً ... ومن ثم اختلفت الفاصلة لاختلاف الحال، ومع ذلك فالفواصل في هذه الآيات فيها تكرار أيضاً كما بين "يمترون و فيكون و لا يؤمنون " وكما بين " مستقيم وعظيم " أما لفظ "مبين " فهو مشترك

مع الأفعال في الانتهاء بالنون ومع الأسماء في وجود المد قبل الحرف الأخير ، وهو مدّ بالياء مثلهما، فسبحان من هذا كلامه المبين، إن ا لجو الغاضب المتوعد هاهنا لا تنسى فيه الفاصلة كذلك ، لأن لها دورها في تصوير المعنى والتأثير على المتلقين بلا ريب.

لقد ساعدت الفاصلة إذن في تصوير اللوحة الغاضبة المهددة المتوعدة ، فإذا انتهى ذلك الجو الغاضب بظلاله وعدنا إلى القصص المبارك وجدنا الفاصلة تعود إلى ما بدأت به﴿ واذكرْ في الكتاب إبراهيمَ إنه كان صدِّيقاً نبياً﴾ (مريم : ٤١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصـل الثالـث

دراسة تطبيقية في فواصل سورتي البقرة والإسراء

لا ريب أن دراسة فواصل القرآن كلها متتابعة تعدّ دراسة تفسيرية كبيرة إذا درسناها من منظور المباحث المتنوعة للبلاغـة العربيـة التـي قدمنا صوراً منها في الفصلين السابقين ،ومـن ثـم يمكـن أن تـأتي في مجلد كبير مما قد يخرج بنا عن حدود هذا البحث،ولذا نختـار سـورتي البقرة والإسراء لتكونا نموذجاً ومثالاً للدراسة الفاصلة القرآنية درساً تفصيلياً،وسنوجز القول فيهما إيجازاً غير مخلّ.

١ – سورة البـقرة

وهذه الـسورة الكريمـة أطـول سـور القـرآن وأكثرهـا تنوعـاً في الموضوعات التي تناولتها ، بل إن فيها موضوعات لم تفصّل في غيرها كالصوم وبعض مناسك الحج ،وسوف نتنـاول دراسـة فواصـلها في ضوء مباحث البلاغة العربية على النحـو الآتي :

أولاً : **الدراسة الصوتية** : نعني بالدراسة الصوتية هنا ما سبق أن ذكرناه من دراسة الأصوات" الحروف "التي تنتهي بها الفواصـل في السورة ، وقد أحصيت ذلك فوجدته على النحو الآتي :

النون (١٩٣) الميم (٥٤) الـراء (٢١) البـاء (٩) الـدال (٧) القاف (١) اللام (١) .

ملاحظات حول الإحصاء :

إذا دققنا النظر في هذه الإحصاءات فسوف نجد أن فاصلة النـون قد استأثرت بثلثي فواصل السورة ، بل إنها زادت عن نسبة استعمالها الإجمالية في القرآن الكريم وهي ٥١٪ تقريباً ،وكذلك الميم تزيد نسبة

استعمالها فاصلة في السورة عن نسبة استعمالها في القرآن كله ، فهي في السورة ١٨,٨٨٪ وفي مجموع القرآن ١٢,٣٨٪.

أما الراء فنسبتها في القرآن ١١٪ وفي البقرة ٧,٣٤٪ فهي تزيد في القرآن كله على نسبتها في السورة نظراً لأنها لم يسجع بها في البقرة إلا قليلاً فيها،في حين جاءت سور كاملة مسجعة بها كسورة القمر والقدر وشطر كبير من سورة المدثر وغيرها.

أما الباء فتتقارب نسبتا استعمالها في القرآن وفي السورة ، فهي في القرآن ٣,٨٪ وفي السورة ٣,١٤٪ ، أما الدال فقد استعملت في القرآن فاصلة أكثر من استعمالها في السورة ، فهي فيه ٤,٦٪ وفيها ٢,٤٤، وذلك للسبب نفسه المذكور مع الراء، أما القاف واللام فقد استعملت كل منهما مرة واحدة بنسبة ٣٤ ,٪ من فواصل السورة ، وهي نسبة تقل كثيراً عن استعمالهما في فواصل القرآن كله ، فنسبة القاف فيه ١,١٪ ، ونسبة اللام ٣,٤٪.

والملاحظ عموماً أن حروف الفواصل في سورة البقرة من النوع الذي يتمتع بخاصية وضوح سمعي أكبر حسب النسب التي قدمناها من قبل ، فالأصوات الأنفية كالنون والميم والتكرارية كالراء من الحروف ذات الوضوح السمعي،وهي أكثر الحروف استعمالاً كذلك في فواصل السورة ، وحرفا النون والميم هما حرفا الترنّم الطبيعي في اللغات الإنسانية ، ولذا أوثرا على غيرهما في فواصل القرآن وارتفعت نسبة استعمالهما في فواصل السورة عن سائر القرآن .

ثانياً : التسجيع في فواصل سورة البقرة :

صار معلوماً من دراستنا هذه استعمال لفظ التسجيع بمعنى إحداث الإيقاع اللفظي في نهايات بعض الآيات ، مع رغبتنا في تناسي

ذلك الظلّ الثقيل للكلمة في استعمالات أخرى للسجع ليست من البلاغة في شيء ، وعلى وجه الدقة والتحديد فإننا نستعمل لفظ التسجيع مساوياً للفظ التوقيع الذي هو إحداث الإيقاع اللفظي، واللغة على كل حال طوْع من يستعملها ، فقد يرقى بها راق إلى العُلا، وقد يهبط بها هابط إلى الحضيض ، ولو أن كاتباً ذكر جملة في قصة أو مقال أو قصيدة ثم ذهب يكررها في عمله ذاك إحدى وثلاثين مرة حتى سمج بها مقاله وخرج عن حدود الذوق والبيان ما عيبت بذلك سورة الرحمن التي كررت فيها آية واحدة إحدى وثلاثين مرة على نظام معجز وبلاغة خاصة ، وهكذا الحال في السجع ، والفروق بين استعمال بعض الكتّاب له ، وبين سجع القرآن .

وقد ذكرت من قبل أن فواصل القرآن منها المسجوع ومنها المرسل ، وقد جاء التسجيع والإرسال في فواصل سورة البقرة كذلك لكن التسجيع بالنون مسبوقة بالمد كان غالباً على فواصلها .

والتسجيع بالنون يأتي بمعاقبة الأفعال المضارعة المرفوعة المسندة إلى واو الجماعة لأسماء الفاعلين المجموعة جمعاً سالماً للمذكر أو لألفاظ يوجد فيها المدّ والنون في أصل بنيتها ، ولننظر في الفواصل النونية الأولى من السورة لنجد"للمتقين، ينفقون ، المفلحون ، يؤمنون ، مؤمنين"وهي فواصل تعاقب الأفعال المذكورة فيها الأسماءَ محدثة الإيقاعَ الجميل بالنون والمدّ قبلها.

ومن الفواصل التي فيها الواو والنون أو الياء والنون في بنية الكلمة (مهين – فيكون) وجاءت متعاقبة مع الفواصل السابقة في (الكافرين ، مهين ، مؤمنين) (٨٩–٩١) ومنها (قانتون ،فيكون ، يوقنون) (١١٦–١١٨) واستعمال هذه الكلمات فواصل قليل بالقياس إلى الفواصل الأثيرة بالفعل أو الاسم المجموع المذكورين قبل .

وتبدأ السورة بفاصلة الميم في ﴿الـم﴾ثم تستمر بالنون حتى الآية السادسة ثم تأتي السابعة بفاصلة الميم،وتعود إلى النون حتى التاسعة عشرة فنجد العشرين بفاصلة الراء "قدير" وهكذا تسجّع بعض الفواصل بالنون ثم تتغير الفاصلة في بضع آيات لتعود إلى النون ثانية والحروف التي تعاقب النون في الفواصل يسجع بها كذلك في بعض المواضع،وتأتي أحياناً مفردة مرسلة ، فالآية السادسة عشرة بالميم كسرت التسجيع بالنون ولم يسجع بها مع ميم أخرى بل أعقبتها النون ثانية .

وهذا تفصيل للتسجيع بالحروف الأخرى المستعملة فواصل في السورة مع النون :

١ – الميم : جاءت الميم في أكثر المواضع بغير تسجيع ، ولكنها ترد مسبوقة بالمد الذي يقربها صوتياً مع الفواصل الأخرى خصوصاً النونية ، وحدث التسجيع بها في عشرة مواضع من السورة ، ثمانية منها مسجعة بميمين ، وموضع واحد بثلاث ، وآخر بخمس .

أما التسجيع باثنتين فمنه:

أ- ﴿ **وللكافرين عذابٌ أليمٌ** ﴾ (١٠٤) مع ﴿ **واللهُ ذو الفضل العظيم** ﴾ (١٠٥) والفاصلتان كذلك على وزن واحد " فعيل ".

ب- ﴿ **لهم في الدنيا خزيٌ ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ** ﴾ (١١٤) مع ﴿ **إن الله واسع عليم** ﴾ (١١٥) وهما كذلك على وزن واحد.

وسجّع بالميم على هذا النحو كذلك في الآيات (١٤٢-١٤٣) و(١٧٣-١٧٤) و(١٨١-١٨٢) و(٢٥٥-٢٥٦).و(٢٦٠-٢٦١) و(٢٨٢-٢٨٣).

أما التسجيع بالميم في ثلاث آيات ففي الآيات (١٢٧-١٢٩)بألفاظ " العليم ، الرحيم ، الحكيم" وهي كلها صيغ مبالغة على وزن واحد هو فعيل .

وورد التسجيع بالميم في خمس آيات كذلك في موضع واحد في الآيات (٢٢٤-٢٢٨) بألفاظ " عليم ، حليم، رحيم ، عليم ، حكيم " وهي كذلك صيغ مبالغة على وزن فعيل ، ونلاحظ دقة الإيقاع في التسجيع بالميم وفي اختيار ألفاظ الفاصلة على زنة واحدة بل من نوع واحد من المشتقات ، هذا مع استعمالها معرفة في المواضع الثلاث السابقة ، وبدون الألف واللام في الخمس المذكورة ، وليس وراء ذلك مذهب في الحرص على جمال الإيقاع فيما نعلم من لسان العرب في هذا اللون البياني .

٢- الراء : جاءت الراء كذلك فاصلة مفردة ومسجعاً بها ، واستعمالها مفردة أكثر من استعمالها مسجعاً بها في فواصل السورة ، وقد ورد التسجيع بها في خمسة مواضع من فواصلها ، منها على سبيل المثال :

أ- ﴿**ألم تعلمْ أن اللهَ على كل شيء قديرٌ**﴾(١٠٦) مع ﴿**وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير**﴾ (١٠٧) والفاصلتان على زنة واحدة .

ب- ﴿**إن اللهَ على كل شيء قديرٌ**﴾(١٠٩) مع ﴿**إن اللهَ بما تعملون بصيرٌ**﴾(١١٠) وبقية المواضع هي (٢٣٣-٢٣٤)و(٢٧٠-٢٧١) و(٢٨٤-٢٨٥) .

وقد وردت بالتسجيع بالراء في السورة صورة نادرة في الفواصل القرآنية عموماً هي معاقبة الياء للألف قبل حرف الفاصلة ، فالفاصلة " أنصار" (٢٧٠) أعقبتها" خبير" (٢٧١) ولكن الإيقاع

الجميل يتحقق من مجيء لفظ أنصار على زنة " أسباب" الفاصلة السابقة عليه (٢٦٩) فلئن فقد مماثلة الياء في المد في"خبير"فقد حقق الإيقاع مع الفاصلة السابقة بالوزن، ومع ما بعده بالراء ، وهذا كله من دقة مراعاة القرآن الكريم للفاصلة .

٣- الباء : استعملت الباء فاصلة في السورة تسع مرات ، جاءت في ثلاث منها مرسلة ، وفي ثلاث مسجعاً بها باثنتين في كل موضع ، وهي :

أ- ﴿وأن اللهَ شديدُ العذابِ ﴾(١٦٥) مع ﴿ورأوا العذابَ وتقطّعتْ بهم الأسبابُ ﴾(١٦٦)

ب- ﴿واتقوا اللهَ واعلموا أن اللهَ شديدُ العقابِ ﴾(١٩٦) مع ﴿ واتقون يا أولي الألباب﴾(١٩٧).

ج- ﴿ ومن يبدلْ نعمةَ الله من بعد ما جاءته فإن اللهَ شديدُ العقاب ﴾ (٢١١) مع ﴿واللهُ يرزقُ مَنْ يشاءُ بغير حساب﴾(٢١٢).

والباء وإن كانت حرفاً شفوياً لا يتمتع بنسبة وضوح سمعي كالنون أو الميم ، فإن قواعد التجويد تحتم قلقلته أينما ورد ساكناً في القرآن فيتحقق له الوضوح السمعي كذلك .

٤- الدال : استعملت الدال فاصلة في السورة سبع مرات منها أربع مرسلة وسجع بها في مواضع واحد بثلاث منها هو ﴿واللهُ لا يحبّ الفسادَ ﴾(٢٠٥)مع ﴿فحسْبُه جهنمُ ولبئس المهادُ ﴾(٢٠٦) مع ﴿ واللهُ رءوفٌ بالعباد﴾(٢٠٧)ونلاحظ أن الألفاظ الثلاثة على زنة واحدة من حيث الحروف، أما من حيث الحركات فهي كذلك متماثلة ما عدا فتحة الفاء في الفساد وكسر الميم في المهاد والعين في العباد ،

هذا مع توحيد حرف المد قبل الفاصلة وهو الألف فيها جميعاً ، والدال كالباء في وجوب القلقلة إذا وردت ساكنة.

أما القاف فقد استعملت فاصلة مرة واحدة هي "خلاق"(٢٠٠) وهي كذلك تحتوي على المد بالألف قبل حرف الفاصلة،وهو موجود في الفاصلتين بعدها"النار،الحساب" مما يحقق نوعاً من التوازن الصوتي كذلك، هذا مع قلقلتها عند الوقف لزيادة وضوحها في السمع.

واللام استعملت كذلك مرة واحدة فاصلة في السورة في "السبيل" (١٠٨) واللفظ في بنيته المد بالياء قبل الفاصلة ، وهو يحقق لوناً من التوازن الصوتي مع الفاصلة السابقة " نصير" واللاحقة "قدير" والألفاظ الثلاثة على وزن واحد هو فعيل .

ومع كثرة الفواصل المسجعة بالنون في السورة لم يرد الإيطاء في الفواصل النونية إلا في موضع واحد هو ﴿ **ولبئس ما شروا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون** ﴾(١٠٢-١٠٣)والذي سوّغه هنا أن المعنى في الأولى على الذم والترهيب ، وفي الثانية على الترغيب .

وورد الإيطاء في السورة كذلك في موضع آخر في فاصلة الميم هو ﴿ **واللهُ بكل شيء عليمٌ** ﴾(٢٨٢) مع ﴿ **واللهُ بما تعلمون عليمٌ** ﴾ (٢٨٣)والذي سوّغه طول الآيات في ذلك الموضع،فالأولى آية الدَّيْن وهي أطول آيات القرآن الكريم،والثانية طويلة كذلك،هذا مع تنوع المعنى فيهما، والله أعلم .

***

ثالثاً : التقديم والتأخير في فواصل سورة البقرة :

ورد التقديم والتأخير في فواصل السورة لإفادة الاهتمام بالمقدم والاختصاص مع غرض آخر مهم هو إحداث الإيقاع اللفظي وإجراء الفواصل ، وعادة ما يكون التقديم والتأخير بتقديم المعمول وتأخير العامل ليكون فاصلة تحمل صورة التوافق الصوتي مع الفواصل السابقة واللاحقة ، وقد ورد التقديم والتأخير في فواصلها في (٥٩) موضعاً .

والتقديم والتأخير في السورة على أنواع هي :

١ - تقديم الجار والمجرور على العامل فيهما :

وهو أكثر أنواع التقديم في فواصل السورة ، إذ ورد في (٤٨) موضعاً مع تأخير العامل، وهذا العامل قد يكون فعلاً وقد يكون اسماً عاملاً عمل الفعل بشروط كأسماء الفاعل أو المفعول أو صيغ المبالغة ، ومن صور مجيء العامل فعلاً :

أ- ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون**﴾(٣) والتقدير : وينفقون مما رزقناهم ، قال الألوسي: وإنما قدّم سبحانه وتعالى المعمول اعتناء بما خوّل الله تعالى العبد أو لأنه مقدم على الإنفاق في الخارج ، ولتناسب الفواصل "[١].

ب- ﴿**وبالآخرة هم يوقنون** ﴾(٤) وتقديره : وهم يوقنون بالآخرة ، قال في الكشاف : "وفي تقديم الآخرة وبناء يوقنون على هم تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك"[٢] ولا ريب أن الإيقاع قد تحقق كذلك بهذا التقديم والتأخير في الفاصلة.

وقد يكون العامل اسماً ، ومنه :

أ- ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٣٩)خالدون : اسم فاعل يعمل عمل الفعل اللازم ويتعدى بحرف الجر،يقال:خلد في المكان: أقام فيه إقامة دائمة ، وقدم الجار والمجرور لتحديد الجهة وصرف الذهن عن غيرها ، وتحقيق إيقاع الفاصلة.

ب- ﴿ ونحن له عابدون ﴾ (١٢٨) عابدون : اسم فاعل يعمل عمل فعله وتعدى بحرف الجر إلى المفعول المقدم في "له" وحقق بذلك إيقاع الفاصلة أيضاً مع إفادة اختصاص الله تعالى وحده بالعبادة .

وقد يكون العامل صيغة مبالغة ، ومن ذلك :

أ- ﴿ والله بما تعملون خبيرٌ ﴾(٢٧١)

ب- ﴿ والله بكل شيء عليمٌ ﴾(٢٨٢)

وهذه الألوان من التقديم والتأخير مرتبطة بالسياق ، أي بالدلالة والإيقاع معاً وحين لا تحتاج الفاصلة إليها تأتي على الأصل دون تقديم وتأخير ، ومن ذلك في السورة :

أ- ﴿ والله محيطٌ بالكافرين ﴾(١٩) حيث جاءت الفاصلة بالإيقاع المراد فرتبت الجملة على الأصل من المبتدأ والخبر ومعمول الخبر .

ب- ﴿ والله رءوفٌ بالعباد ﴾(٢٠٧)

، وهذا التقديم في الفاصلة قال فيه أكثر البلاغيين إنه يفيد الاهتمام والاختصاص ، وقد عدد الزركشي أسبابه وجعل منها :" أن يكون في التأخير إخلال بالتناسب، فيقدم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة

كقوله ﴿ واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾(فصّلت :٣٧) بتقديم إياه على تعبدون لمشاكلة رؤوس الآي "[٣]

٢- تقديم شبه الجملة الواقع خبراً على المبتدأ :

وقد ورد ذلك في ثمانية مواضع في فواصل السورة هي :

أ- ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾(٧) .

ب-﴿وللكافرين عذاب مهين ﴾(٩٠)

ج- ﴿وللكافرين عذاب أليم ﴾(١٠٤)

د- ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾(١١٤)

هـ-﴿ ولهم عذاب أليم ﴾(١٧٤)

و- ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾(١٧٨)

ز- ﴿فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾(١٩١)

ح- ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾(٢٨٥)

وقد ورد المبتدأ المؤخر في المواضع الستة الأولى منها نكرة موصوفة، والنكرة الموصوفة يجوز الابتداء بها وتقدمها في تركيبها وتأخير شبه الجملة الواقع خبراً أو الخبر عموماً ، ذلك أن الوصف يقرب النكرة من المعرفة ، وقد ورد ذلك في السورة نفسها وهو ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يتبعُها أذى ﴾ (٢٦٣) ولكن القرآن الكريم أخّرها في المواضع السابقة للدلالة والإيقاع معاً حيث يريد إثبات العذاب للكافرين واختصاصه بهم واختصاصهم به من خلال التقديم، ثم إحداث الإيقاع مع الفواصل الأخرى في السياق .

أما في الموضعين السابع والثامن فلا يتحتم التقديم كذلك لأن المبتدأ المؤخر معرفة ولكن أفاد في" **كذلك جزاء الكافرين**" تحديد نوع العذاب الحال بالكافرين الذين يقاتلون المسلمين ابتداء عند المسجد الحرام ، فكذلك القتل جزاؤهم، وأفاد في"**وإليك المصير**" تحديد الجهة وصرف الذهن عن وجود غيرها ، والله أعلم .

٣- تقديم الظرف على عامله :

وقد ورد ذلك في موضع واحد في السورة هو ﴿**بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون** ﴾(٨٨)قال العكبري :"قليلاً : منصوب صفة لمصدر محذوف ، وما زائدة ، أي :فإيماناً قليلاً يؤمنون،وقيل : صفة لظرف ، أي : فزماناً قليلاً يؤمنون "[١]وعلى الوجه الأول فليس ظرفاً ، وعلى الثاني فهو صفة للظرف ونائب عنه،وعلى الوجهين فتقديمه محقق للإيقاع في الفاصلة .

٤- تقديم المفعول به : وقد ورد ذلك في موضعين :

أ- ﴿ **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون**﴾(٥٧)

وقد سبق لنا الحديث عن مثل هذا التقديم في الفاصلة وإفادته الاختصاص وتحقيق إيقاع الفاصلة .

ب- ﴿ **واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾(١٧٢) ولو تأخر الضمير "إياه" الواقع مفعولاً لصار ضميراً متصلاً "تعبدونه " فلما جعله منفصلاً قدمه لمزيد الاختصاص وتحقيق الإيقاع،أي : اشكروا له وحده إن كنتم تخصّونه بالعبادة .

رابعاً : الحذف في فواصل سورة البقرة :

قلنا إن الحذف في الفاصلة يكثر حين تكون الفاصلة فعلاً مضارعاً مسنداً إلى واو الجماعة مرفوعاً ، وأكثر ما يقع معه حذف

المفعول به ، وذكرنا أن لكل سياق بلاغته الخاصة ، هذا مع ما قاله بعض البلاغيين من أن الفعل من هذا النوع لا يراد منه التعدي غالباً بل يراد إثبات الفعل في ذاته دونما إشعار بوجود مفعول به ، كقولهم : هو يعطي ويمنع ، أي هو قادر على العطاء والمنع في ذاته لا مجرد إعطاء شيء بعينه أو منعه،وعلى المعنيين فإن الإيقاع يتحقق كذلك مع الإيجاز المراد ، ويترك للذهن تصور المحذوف حسب السياق ، ولا يقتصر الحذف على معمول الفعل المذكور ، وإنما يحذف كذلك معمول الاسم العامل عمله ، ومن ذلك :

أ- ﴿ وما يخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون﴾(١٢) فالفعل يشعرون فعل متعد، لكن مفعوله محذوف ، وقد يتصور الذهن أن المعنى : ولا يشعرون أن خداعهم لأنفسهم فحسب ، وأن الله تعالى لا يمكن خداعه ولا يمكن خداع المؤمنين الداخلين في معيته سبحانه وأن الخداع عاقبته على المخادع لا على غيره...والله أعلم .

ب- ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾(٢٧)والخاسرون : اسم فاعل مجموع تحققت له شروط العمل ، حيث جاء معرفاً بالألف واللام واقعاً خبراً ، وهما من شروطه ، لكن معموله محذوف ، فالخاسرون يخسرون أنفسهم وأماكنهم في الجنة وأولادهم...إلخ،فالخسارة متعددة ومتنوعة ،ولذا تُرك للذهن تصورها دون ذكر واحد منها يقتصر الذهن عليه إذا ذكر ، وهو مع ذلك محقق لإيقاع الفاصلة ، وهذا اللون كثير في الفواصل .

وقد تحذف الياء الواقعة مفعولاً ويعوض عنها بالكسرة ويوقف على الفعل بالسكون فيتحقق الإيقاع كذلك ، ومنه :

أ- ﴿ وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون ﴾(٤٠)

ب- ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾(٤١)
ج- ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾(١٥٢)

خامساً : إيثار التعبير بالمضارع على التعبير بالماضي:

وقد ورد ذلك في قوله تعالى ﴿أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسُكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾(٨٧) فقد قدم المفعول وجاء بفعله ماضياً في﴿ففريقاً كذبتم﴾ولكنه مع القتل جاء الفعل مضارعاً مع تقديم المفعول فقال " وفريقاً تقتلون "فحقق ذلك إيقاعاً للفاصلة لم يكن الفعل الماضي ليحققه لو قيل﴿وفريقاً قتلتم ﴾هذا مع إرادة استحضار الفعل في الزمن الحاضر مع أن الخطاب لليهود في زمان النبي ﷺ وبعده ، والقتلة كانوا أجدادهم ، قال في تفسير المنار :" وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال،وإن مرت عليها القرون والأحوال ، لأنها أفاعيل لا تخلق جدّتها،ودماء لا تطير رغوتها،وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة ؛لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به،فيكون له من التأثير ما يناسبه"(٥)

سادساً : مناسبة الفاصلة لمضمون الآية :

لا شك أن الفاصلة دائماً مناسبة لمضمون آيتها ، إذ تأتي غالباً لتقرير حكم سبق في الآية أو التعليق عليه أو توكيده ، أو لبيان جديد يضيف إلى مضمون الآية...إلخ،فهي متصلة بمضمون الآية اتصالاً وثيقاً ، وهذه شواهد للتمثيل فحسب:

١ - ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾(٢) لما بدأ الله تعالى الكلام في السورة بعد الحروف المقطعة ذكر الكتاب المبارك ونفى عنه الريب ، ثم ختم الفاصلة بما يناسب ذلك تماماً وهو كون هذا الكتاب هدى لصنف واحد من الناس ينتفعون به هم المتقون ، ولا ينتفع غيرهم بما فيه من خير عظيم ، ثم شرع بعدها يبين صفات هؤلاء المتقين .

٢-﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٣) بين الله تعالى بعض صفات المتقين ، فبدأ بالإيمان بالغيب وهو أعظم أركان الإيمان لأن الله تعالى-حسب حواسنا - غيب عنها ، والملائكة غيب ، والجنة والنار غيب،ومن آمن بذلك وجب عليه أن يقيم الصلاة، ولذا ثني بها، والصلاة والزكاة متلازمتان في الشرع،ومقترنتان بالذكر في كثير من آيات القرآن ولذا ثلّث بالزكاة وختمت بها الآية مع تقديم المعمول " مما رزقناهم" لبيان أن ذلك الرزق هو من عند الله تعالى أولاً .

٣- ﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾(٤)تابعت الآيات بيان بعض صفات المتقين ، فذكرت الإيمان بالقرآن وما أنزل قبله من الكتب السماوية ثم ينتقل السياق إلى الإيمان بالآخرة ليستكمل كل عناصر الإيمان ويختم بها الآية، وذلك على الترتيب الطبيعي لوجود الآخرة كذلك .

٤- ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾(٥) فمن آمن بذلك كله فهو على هدى من الله تعالى،ومن كان على ذلك فهو من المفلحين،والفلاح نتيجة الهداية،لذا قدمها وختم الآية بالفلاح ، والله أعلم .

٥- ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٥٧)

ختمت الآية بختام فيه لفظ "كانوا" الدال على المضي ؛ لأن الحديث عن قوم مضوا،ولكن حين جاء الحديث عن مثل يتكرر كثيراً في الدنيا لم يأت لفظ كان في فاصلة الآية ، وذلك في قوله تعالى ﴿مَثَلُ ما ينفقون في هذه الحياة كمثل ريح فيها صِرٌ أصابت حرثَ قوم ظلَموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسَهم يظلمون﴾(آل عمران :١١٧) فقد ختمت كل آية بما يناسب زمانها،هذا مع مناسبة دلالة الفاصلة لمضمون الآية من نفي الظلم عن الله تعالى أو منه وإثباته لمن ظلموا أنفسهم .

٦-وحين يكون الحديث عن الله تعالى وعبادته وما أحل وما حرم نجد الآية تختم بفاصلة فيها لفظ الجلالة كما في السورة﴿إن الله غفور رحيم﴾ (١٧٣)حيث ذكر قبله العبادة لله وحده وبعض ما حرّم على عباده (١٧٢-١٧٣) فناسب ختامها بلفظ الجلالة ، أما حين يذكر في الآيات النعم التي أنعم الله بها على العباد من الجنات المعروشات وذكر الحبوب والثمار والأنعام من الضأن والمعز والإبل... وكل ذلك فيه تربية لأجسام بني آدم فإن ذكر لفظ الرب في الفاصلة يكون أليق بها ، وهذا ما جاء في سورة الأنعام(١٤٠)وتكرر فيها ذكر الرب كثيراً ، فناسب ذلك ختامها بلفظ الرب سبحانه "(٦) .

٧- ﴿﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨١-١٨٢).

ختم الأولى بالسمع والعلم لأنه ذكر في سياقها السمع ، وفيه تحذير شديد لمن يبدل الوصية ، وختم الثانية بالمغفرة والرحمة لأنه

ذكر فيها الصلح بين الوارثين وهو يستوجب المغفرة والرحمة ، والله أعلم .

٨- وقد تخفى مناسبة الفاصلة لمضمون الآية ، كما في قوله تعالى:

أ- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(البقرة :٢٩) .

ب- ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٩)

قال السيوطي :" إن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة وفي آية آل عمران الختم بالعلم ، والجواب أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم وخلق السماوات خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت ، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالماً بما فعله كلياً وجزئياً مجملاً ومفصلاً يناسب ختمها بصفة العلم ،وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة القدرة "(٧).

٩- وقد يكون فهم مضمون الفاصلة مشكلاً لبعده - حسب عقولنا - عن مضمون الآية ، قال السيوطي:"في الفواصل مالا نظير له في القرآن ...كقوله عقب الأمر بالدعاء والاستجابة﴿وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ (١٨٦) وقيل:فيه تعريض بليلة القدر حيث ذكر ذلك عقب ذكر رمضان ، أي لعلهم يرشدون إلى معرفتها "(٨).

قلت : المناسبة وإن كانت خفية إلا أنها قد تظهر بالتدبر ، فقد ذكر صوم رمضان وبعده الدعاء والاستجابة ، والدعاء أصل العبادة ،

وفي الحديث عن النبي ﷺ : "الدعاءُ هو العبادة "[9] فإذا تقرر ذلك وعلم أن الدعاء هو العبادة فإن فاعل ذلك يكون من الراشدين، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿ لعلهم يرشدون﴾ والله أعلم.

١٠- ونختم هذا المبحث بآخر آية في السورة الكريمة ، حيث ختمت بقوله تعالى﴿أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ (٢٨٦) وذلك في سياق دعاء جميل في آخر آيتين من السورة الكريمة حيث علّم الله تعالى عباده المؤمنين هذا الدعاء المبارك وختمه بطلب النصر على الكافرين ، والنصر عليهم أساس لبناء حضارة الإسلام وازدهارها ، والتاريخ شاهد على ما نقول .

***

الهوامش

١.روح المعاني : ١/ ١١٨.
٢.الكشاف :١/ ٤٢.
٣.البرهان :٣/ ٢٧٥.
٤.إملاء ما منّ به الرحمن :٥٧.
٥.تفسير المنار : ١/ ٣٧٧، ط دار المعرفة ، بيروت د.ت .
٦.انظر : البرهان للكرماني :٣٩ مع الهامش .
٧.الإتقان : ٢/ ١٣٢.
٨.نفسه :٢/ ١٣٢.
٩.رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم ، انظر: صحيح الجامع : ١/ ٦٤١ح (٣٤٠٧).

٢- فواصل سورة الإسراء

سورة الإسراء مكية وآياتها (١١١) وردت جميعها منصوبة منونة ما عدا الآية الأولى منها فقد وردت بفاصلة الراء المرفوعة﴿إنه هو السميعُ البصيرُ﴾ ويوقف عليها بالسكون أما باقي الفواصل فقد وردت منصوبة منونة، وتعددت فيها حروف الفواصل ، إلا أن هناك عاملاً يوحد بينها صوتياً هو الوقف على التنوين بالسكون فيتحول إلى حرف مد.

ولا نزال نؤكد مراراً مراعاة القرآن الكريم لإيقاع الفاصلة القرآنية رغم تردد بعض الباحثين في قبول هذه الحقيقة ، والذي أكدناه مراراً كذلك أن الفاصلة في مفهومنا لفظ ودلالة لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ومع أنا أوردنا أمثلة وشواهد كثيرة على هذه المسألة في مثاني الدراسة نعود فنؤكدها من خلال مقارنة موجزة بين فواصل سورتي الإسراء والكهف المكيتين المتجاورتين في المصحف .

إن فواصل السورتين منصوبة منونة إلا الآية الأولى في الإسراء ولكن الفواصل في الإسراء مسبوقة بحرف مد (الياء أو الواو) قبل الحرف الأخير الذي يليه التنوين مثل (حديداً - قريباً - قليلاً - مبيناً) أما في الكهف فالفواصل المنونة مسبوقة بحرف متحرك غير مسبوق بالمد الذي ذكرناه في الإسراء مثل (عوجاً - حسناً - أبداً - ولداً) .

هذا مع الاختيار المعجز لكلمة الفاصلة القارّة في موضعها قراراً لا تقوم به كل مرادفاتها في العربية ، وهذا من أدل الدلائل على مراعاة القرآن أمرَ الفاصلة والعناية بها .

ونتناول دراسة فواصل سورة الإسراء على النحو الآتي :

أولاً : الدراسة الصوتية :

بلغ عدد الحروف المستعملة فاصلة في السورة أحد عشر حرفاً على النحو الآتي : الراء (٥١) اللام (٣٧) الدال (٦) العين (٤) الميم (٤) الباء (٢) الفاء (٢) النون (٢) السين (١) القاف (١) الهاء (١) .

ملاحظات حول الإحصاء :

نلاحظ أن فاصلة الراء قد استأثرت بما يقل قليلاً عن نصف فواصل السورة ، وحرف الراء يتمتع بنسبة وضوح سمعي كبيرة ، وهو كذلك فاصلة الآيتين الأولى والأخيرة من السورة ، وقد جاء مفرداً في مواضع وسجّع به في مواضع أخرى كما سنفصّل بعد .

وجاء حرف اللام تالياً له بنسبة ٣٣٫٣٪ أي نسبة الثلث من فواصل السورة وجاء حرف الدال بنسبة ٥٫٤٪ ، وجاءت الدال وغيرها من الفواصل متحركة مما يحقق لها نسبة وضوح سمعي مع وجود المدّ الناشئ عن الوقف على التنوين بالسكون بعدها ، ولئن تعددت حروف الفاصلة في السورة فلقد وحّد بينها هذا المد الجميل في أواخرها .

ثانياً : التسجيع في سورة الإسراء :

قلنا إن وجود المدّ في أواخر الآيات يكاد يوحدها صوتياً وإن تعددت حروفها ، ولذا فقد ختمت كل آيات السورة به ما عدا الآية الأولى منها لسبب خاص هو أنها تتحدث عن معجزة الإسراء برسول الله ﷺ ولم يذكر ذلك في السورة إلا في هذه الآية فقط ،

فناسب ذلك تميزها بفاصلة واحدة هي الراء الساكنة في ﴿إنه هو السميعُ البصيرُ﴾ ولعل هذا يذكرنا بما سبق أن درسناه بعلاقة الفاصلة باللوحة القرآنية ومضمون الآيات .

وقد استعملت فواصل السورة أحد عشر حرفاً من حروف المعجم العربي ، ومع ذلك لم يحدث التسجيع إلا بثلاثة منها فقط في السورة هي الراء واللام والدال ، وهذا بيان بها:

١ - الراء :مع كثرة استعمال الراء فاصلة في السورة كان من الطبيعي كثرة التسجيع بها في فواصل السورة ، وقد حدث التسجيع بها في عشرة مواضع من السورة على النحو الآتي :

أ- سجع بها مرتين في أربعة مواضع من السورة أولها قوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا . وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٣-٤) أما بقية هذه المواضع فهي (٥٧-٥٨) و(٦٣-٦٤) و(٩٦-٩٧)

ب- وسجع بها في ثلاث آيات في موضع واحد في الآيات (٨٧-٨٩) والفواصل فيه هي "كبيراً ، ظهيراً ، كفوراً " ونلاحظ اتفاق الأولى والثانية تماماً في الوزن ، واختلاف الأخيرة عنهما في حرف واحد فقط هو الواو مكان الياء فيهما .

ج- وسجع بها في أربع آيات في موضعين هما (٦-٩)و(٩٩- ١٠٢) والفواصل في الأول " نفيراً ، تتبيراً ، حصيراً ، كبيراً " وثلاث منها على زنة واحدة وتزيد الرابعة عنهن حرفاً واحداً هو التاء في أول " تتبيراً ".

د- وسجّع بها في خمس آيات في موضعين هما (١٦-٢٠)و(٤٣-٤٧) والفواصل في الثاني " كبيراً ، غفوراً ، مستوراً ، نفوراً ، مسحوراً ".

هـ- وسجع بها في ثماني آيات في موضع واحد هو (٢٤-٣١)

٢- اللام: ورد التسجيع باللام في السورة في سبعة مواضع على النحو الآتي:

أ- سجع بها مرتين في ثلاثة مواضع أولها ﴿ وكان الإنسانُ عجولاً ﴾ مع ﴿وكلّ شيء فصلناه تفصيلاً﴾(١١-١٢) وورد كذلك في (٢١-٢٢) و(٧٦-٧٧)

ب- وسجع بها في ثلاث آيات في موضع واحد هو (٨٤-٨٦) وفواصله هي "سبيلاً، قليلاً، وكيلاً" وكلها على زنة واحدة.

ج- وسجع بها في أربع آيات في موضعين (٣٤-٣٧)و(٩٢-٩٥)

وفي الموضع الثاني منهما نجد الإيطاء - وهو تكرار لفظ الفاصلة نفسه - في ثلاث آيات في قوله تعالى﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ (٩٣-٩٥) والذي دعا إلى ذلك حاجة السياق إلى اللفظ فاصلة.

د- وسجع باللام خمس مرات في موضع واحد هو (٧٠-٧٤) وفواصله "تفضيلاً، فتيلاً، سبيلاً، خليلاً، قليلاً" وأربع منها على زنة واحدة أما الخامسة "تفضيلاً" فتزيد على ذلك الوزن التاء في أولها فقط.

٣- الدال: وسجّع بها في موضعين من المواضع الستة التي استعملت فيها فاصلة، الأول قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ (٤٩-٥٠) والثاني (٧٨-٧٩) وفواصله " مشهوداً، محموداً "

والأوليان على زنة واحدة (فعيل) والأخريان على زنة واحدة كذلك هي (مفعول) وقد وردت فاصلة الدال مرة بغير وجود المدّ المعتاد قبل حرف الفاصلة في هذه السورة ، وهو أمر نادر في الفواصل عموماً وذلك في قوله تعالى ﴿إن الذين أوتوا العلمَ من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجّداً﴾(١٠٧) وأقول - والله أعلم -إن فعل السجود" يخرون سجداً" بما فيه من سرعة يصورها الفعل " يخرّ" هو الذي اقتضى عدم وجود هذا المدّ ليتحد اللفظ مع دلالته اتحاداً تاماً ، ذلك أن وجود المدّ قد يوحي بالتراخي،وهو أمر نلاحظه ولا نقطع به قطعاً .

ثالثاً : التقديم والتأخير :

ورد التقديم والتأخير في السورة في (٢٧) موضعاً من مجموع آياتها وهو بنسبة (٢٤,٣٪) أي ما يقرب من الربع وهي نسبة كبيرة ، وهو على النحو الآتي :

أ- تقديم شبه الجملة الواقع خبراً لإن على اسمها مثل ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(٩) وذلك لإحداث الإيقاع في الفاصلة بالاسم المنصوب " كبيراً " وإفادة اختصاص المذكورين وحدهم بذلك الأجر بتقديم ذكرهم في " لهم"

ب- تقديم الجار والمجرور على عاملهما ، والعامل هنا الاسم الواقع فاصلة ، ومنه :

-﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾(١٧) والأصل " خبيراً بصيراً بذنوب عباده " ولكن ذلك لا يحقق إيقاع الفاصلة .

- ﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ (٢٥) أي : غفوراً للأوابين ، وفي التقديم فائدتان:إحداث الإيقاع في الفاصلة ، واختصاص المقدمين باستحقاق المغفرة .

ج- تقديم معمول خبر كان عليه ، ومنه :
- ﴿ كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ (٣٦) فالجار والمجرور " عنه " متعلقان بخبر كان "مسئولاً "
- ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾(٥٨)
د -تقديم الظرف على عامله ، ومنه ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ (١١٠)

ومن صور التقديم النادرة في الفواصل تقديم ثلاثة مجرورات لأجل الفاصلة المنصوبة ، وقد ورد ذلك في موضعين :

-﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾ (٦٩)

- ﴿ ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾(٨٦) والنحاة يرون أن الجار والمجرور في " به تبيعاً " على سبيل المثال يجوز فيه أمران : الأول أن يتعلق بالفاصلة نحوياً ، والمراد : وكيلاً علينا ، وأن يكون حالاً منها ، لأنهم يقولون إن صفة النكرة إذا قدمت عليها صارت حالاً ، وعلى الحالين فإن السياق والفاصلة قد تطلبا ذلك التقديم والتأخير.

والملاحظ أن القرآن الكريم يستعمل الإمكانات المتنوعة للعربية في الصيغ والأوزان والتقديم والتأخير وإجراء النصب ...إلخ ، ، يستعمل ذلك في إحداث الفاصلة على الصورة المرادة بأحسن حال ممكنة ، ومن عوامل النصب في فواصل السورة أن تكون الفاصلة خبراً لكان أو اسماً لإن مؤخراً أو مفعولاً به أو مطلقاً أو صفة لاسم منصوب أو حالاً أو تمييزاً .

رابعاً : مناسبة الفاصلة لمضمون الآية :

قد تقرر أن كل فاصلة في القرآن جاءت مناسبة لمضمون آيتها ، وقد يظهر ذلك،وقد يكون فيه بعض الخفاء الذي لا يظهر إلا بالتدبّر

والتفكر ، والآيات في سورة الإسراء قصيرة ومع ذلك ختم كثير منها بجملة نحوية تامة متعلقة بمضمون الآية ، وسنكتفي في هذا ببضعة شواهد ، لأن تحليل الفواصل كلها وفق هذا المنظور يعد كما قلنا آنفاً عملاً تفسيرياً كبيراً يخرج عن حدود هذا البحث، ومن ذلك :

أ- قد تأتي الفاصلة متوافقة مع مضمون الآية في تأكيد حقيقة ذكرتها الآية مثل﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾(٢٧) ومثله ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ (٥٨) .

ب- وقد تذكر الفاصلة نتيجة فعل ذكرته الآية فتكون كالنتيجة المقررة للمضمون مثل ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾(٢٩).

ج-وقد تنهى الآية عن فعل ما فتأتي الفاصلة مصورة لقبحه مثل ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً﴾ (٣٢)

د- وقد تأتي الفاصلة مدحاً لفعل مأمور به في الآية مثل ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٣٥) .

هـ- أما الآية الأخيرة من السورة ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١١١) فقد ختمت هذا الختام البديع ، فالله الواحد الذي لم يتخذ ولداً ولا شريك له سبحانه في ملكه ، ولا يحتاج إلى ولي من ضعف أو ذلة يستحق - مَنْ كانت هذه صفاته الحسنى - أن نكبره تكبيراً ، فالله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً .

الخاتمة وأهم النتائج

لقد بدأت عملي هذا متوكلاً على الله تعالى ، ودأبت فيه شهوراً خمسة بلا ملل ولا كلل وحبب إليّ ذلك أنْ كان البحث في لغة القرآن الكريم ، وقد رجوت وأمّلت أن يضيف بحثي هذا عملاً جديداً جيداً إلى ميدان الدراسات البلاغية للقرآن الكريم ، وها أنا ذا أجمل في إيجاز أهم نتائج الدراسة :

١- إن القرآن الكريم النازل بلسان عربي مبين كان لا بدَّ أن يحتوي على كثير من الظواهر اللغوية التي تعرفها العربية ؛ ليكون مخاطباً القوم بلسانهم وعلى مذاهبهم وطرائقهم في استعمال اللغة ، ولئلا يكون مخاطباً إياهم بما لا عهد لهم به ، ومن ثم استعمل لغتهم بظواهرها المعروفة ومنها السجع .

وقد آثرنا أن ندرس الظواهر الإيقاعية في نهايات الجمل العربية لنرى مكانة الفواصل القرآنية بين أخواتها من الظواهر المشابهة التي كان للعرب اهتمام خاص بها، وقد درسنا الفروق بين مصطلحي السجع والفاصلة ورأينا أن الخلاف حولهما خلاف شكلي غير جوهري .

٢- وفي الدراسة البلاغية للفواصل رأينا أن القرآن يستعمل للفاصلة حروفاً ذوات وقع نغمي هي النون والميم ، وهما الغالبتان على فواصله ، أو حروفاً تتمتع بنسب وضوح سمعي عالية مؤثراً إياها على غيرها مما لا يتضح في السمع حين الوقوف عليه .

٣- والقرآن الكريم لكي يقيم الفاصلة على صورة نمطية إيقاعية استعمل العربية كما استعملها أهلها فحذف في الفاصلة حروفاً وزاد، والتزم أحياناً تكرار بعض الحروف مما لا يلزم كما التزمت العرب في

بعض بيانها ، بل قد وجدنا القرآن يغير في بنية بعض الكلمات لأجل الفاصلة .

٤- وكما قدّمت العرب في بعض بيانها وأخرت قدم القرآن وأخر، وقد درسنا ذلك في فواصله فحسب ، ورأينا أن نسبة كبيرة من الفواصل حدث في تركيبها تقديم وتأخير لبناء الفاصلة الموقعة بدلالتها السياقية .

٥- واستعملت العرب صيغاً مكان صيغ أحلتها محلها،واستغنت بصيغ عن أخرى، وهكذا جاء في القرآن ، لكن في بيان عالٍ ودقة بالغة في اختيار ذلك وموافقته للسياق دلالة وإيقاعاً .

٦-ورأينا القرآن في فواصله يحذف بعض الألفاظ خصوصاً المفعول به ، تاركاً لذهن القارئ تصوّر ألوان عدة من المفاعيل الممكنة في ذلك المكان كانت ستختصر بالذكر في واحد فقط.

٧- والفاصلة ترتبط بمضمون آيتها ارتباطاً وثيقاً ، وقد درسنا ذلك في مبحث خاص مع شواهد متنوعة .

٨- وبناء الفاصلة لفظاً ودلالة يرتبط بالتركيب الذي ترد فيه ، وهذا التركيب يتم وفق قواعد الإعراب الذي هو ميزان الكلام ، فدرسنا ذلك في مبحث خاص .

٩- ومن خلال تدبرنا لبعض السور القصار رأينا ارتباطاً واضحاً بين الفاصلة ومجموعة آيات ذات موضوع واحد، وأسمينا ذلك باللوحة القرآنية ، ومن ثم درسنا ذلك في مبحث جديد في بابه .

١٠- وكان لا بد من استثمار نتائج الدراسة المتنوعة للفواصل في درس عملي على فواصل بعض السور ، وقد اخترنا لذلك سورتي البقرة والإسراء ، والأولى مدنية تغلب النون والميم على فواصلها،

والثانية مكية ذات فواصل منصوبة منونة ، وقد رأينا اهتمام القرآن في ذلك كله بالفاصلة .

هذا ، وقد اجتهدت في عملي هذا قدر الوسع ، وما أحسبني ادخرت جهداً ولا وقتاً لإتمامه ، وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعله في ميزان حسناتي ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

والحمد لله رب العالمين .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المصادر والمراجع

١ -الإتقان في علوم القرآن ، لأبي بكر عبد الرحمن بن الكمال السيوطي ، ط٤ الحلبي ١٣٨٩هـ -١٩٧٨م .
٢- الأدب المفرد، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
٣- أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني،دار المدني ١٤١٢هـ-١٩٩١م .
٤- الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ، لمحمد بن علي الجرجاني،تحقيق : د/ عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر د.ت .
٥- الإعجاز البياني للقرآن،د/ عائشة عبد الرحمن ، ط٢ دار المعارف د.ت .
٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ، مكتبة الزهراء ، القاهرة د.ت .
٧- إعجاز القرآن ، للقاضي أبي بكر الباقلاني ، مطبوع بهامش الإتقان ط٤ الحلبي ١٣٨٩هـ -١٩٧٨م .
٨- الأم ، للإمام الشافعي ،ط دار الشعب د.ت .
٩- إملاء ما مَنّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن ، لأبي البقاء العكبري ، دار الفكر - بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .
١٠- البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، دار الفكر ، بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
١١- بديع القرآن ، لابن أبي الإصبع المصري،تحقيق :د/ حفني محمد شرف ، دار نهضة مصر د.ت .
١٢- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان،لمحمود بن حمزة الكرماني ، نشره عبد القادر أحمد عطا بعنوان : أسرار التكرار في القرآن ط٣ دار الاعتصام ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م .
١٣- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين الزركشي ، دار الفكر ، بيروت - لبنان ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
١٤- بلاغة العرب في بيئات الإسلام ، د/ مصطفى الصاوي الجويني ، دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٥م.

١٥- البلاغة المقارنة ، د/ مصطفى الصاوي الجويني،دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٥م.
١٦- البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات بن الأنباري،تحقيق : د/ طه عبدالحميد طه،الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
١٧- البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، تحقيق / محمد عبد السلام هارون ، ط٥ مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
١٨- تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة ، شرح : السيد أحمد صقر ، ط٢ دار التراث ١٣٩٤هـ ١٩٧٣م .
١٩- تاريخ الطبري ، لمحمد بن جرير الطبري ، ط٤ دار المعارف د.ت .
٢٠- التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ط٨ دار المعارف د.ت .
٢١- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير الدمشقي ، ط٢ دار الفكر - بيروت ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م .
٢٢- تفسير الطبري= جامع البيان في تأويل آي القرآن ، لمحمد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .
٢٣- تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة - بيروت د.ت.
٢٤- جدوى الوزن والقافية في الصياغة الشعرية،د/ السعيد محمود عبد الله ، مقال بمجلة الدارة السعودية ع:١ ، شوال ١٤٠٧هـ-يونيو ١٩٨٧م .
٢٥- الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني ،تحقيق:محمد علي النجار ،ط٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م .
٢٦- دلائل الإعجاز ،لعبد القاهر الجرجاني ، مكتبة القاهرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ط دار المعرفة - بيروت - لبنان ١٤١٥هـ ١٩٩٤م .
٢٧- دلالة الألفاظ ، د/ إبراهيم أنيس ،ط٦ مكتبة الأنجلو ١٩٩١م .
٢٨- ديوان حسان بن ثابت،تحقيق:د/ سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ١٩٨٣م .
٢٩- ديوان الخنساء ، دار بيروت ، لبنان ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م .
٣٠- ديوان سحيم ، تحقيق:عبد العزيز الميمني ، الدار القومية ١٣٦٩هـ- ١٩٥٠م .

٣١- ديوان النابغة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١١هـ- ١٩٩١م .
٣٢- دور الكلمة في اللغة ،ستيفان أولمان ، ترجمة د/ محمد كمال بشر ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٨٨م.
٣٣- سجع القرآن فريد ، د/ أحمد الحوفي ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية،ع:٢٨، ١٣٩١هـ-١٩٧١م .
٣٤- السجع وتناسب الفواصل ، د/ الشيخ عبد الرحمن تاج ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية ،ع :٣٦، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م
٣٥- سر صناعة الإعراب ، لابن جني ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٥٤م .
٣٦- سر الفصاحة،لابن سنان الخفاجي،مكتبة الخانجي١٤١٢هـ-١٩٩٤م.
٣٧- سنن أبي داود ، دار الحديث د.ت
٣٨- سنن ابن ماجة ،ط عيسى الحلبي د.ت .
٣٩- شرح كافية إبن الحاجب ،لرضي الدين الاستراباذي، دار الكتب العلمية - بيروت د.ت .
٤٠- شرح مفصل الزمخشري ، لموفق الدين بن يعيش،مكتبة المتنبي ، القاهرة د.ت .
٤١- الشعر والشعراء،لابن قتيبة،دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .
٤٢- الصاحبي، لأبي الحسين أحمد بن فارس،تحقيق: أحمد السيد صقر ، الحلبي د.ت .
٤٣- صحيح البخاري ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، مطبوع مع شرحه " فتح الباري " لابن حجر العسقلاني ، دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
٤٤- صحيح الجامع الصغير ، للسيوطي ،بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط٣ المكتب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .
٤٥- صحيح مسلم ، لمسلم بن الحجاج القشيري ، مع شرح الإمام النووي عليه ، ط الحلبي د.ت .

٤٦- الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م ، وط المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٤٧- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ،لحمزة بن يحيى العلوي، مطبعة المقتطف ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م م.
٤٨- ظاهرة التكرار بين النحاة والبلاغيين ، السيد علي محمد خضر ، رسالة دكتوراه لصاحب هذا الكتاب مخطوط بآداب طنطا ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٤٩- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ،د/ طاهر سليمان حمودة ، الدار الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٢م.
٥٠- ظواهر أسلوبية في شعر شوقي ، د/ صلاح فضل،مقال بمجلة فصول، مج :١، ع :٤ ، يوليو ١٩٨١م.
٥١- العصر الجاهلي ،د/ شوقي ضيف ، ط٥ دار المعارف ١٩٩٢م.
٥٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي على الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ،ط٤دار الجيل - بيروت ١٩٧٢م.
٥٣- فصول في فقه العربية ، د/ رمضان عبد التواب ،ط٢ مكتبة الخانجي ١٩٨١م.
٥٤- فقه اللغة وسر العربية ، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، دار مكتبة الحياة ، بيروت د.ت .
٥٥- فقه اللغة المقارن ،د/ إبراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٨م.
٥٦- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، لابن النقيب (من علماء القرن السابع الهجري) نشر منسوباً إلى ابن القيم ، دار الكتب العلمية- بيروت د.ت .
٥٧- الكتاب، لسيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط٣ مكتبة الخانجي ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

٥٨- كتاب الشعر، لأرسطو طاليس ، ترجمة د/ شكري محمد عياد ، دار الكاتب العربي ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.
٥٩- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر الزمخشري ، ط٣ دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٦٠- لسان العرب ، لجمال الدين بن منظور ،ط دار المعارف د.ت .
٦١- اللغة الشاعرة ، لعباس محمود العقاد ، دار غريب ، القاهرة د.ت .
٦٢- اللغة العربية - معناها ومبناها ، د/ تمام حسان ، ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩م.
٦٣- اللغة والتفسير والتواصل ، د/ مصطفى ناصف ، عالم المعرفة (١٩٣) الكويت ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
٦٤- مجمع الأمثال . لأحمد بن محمد الميداني . تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ١٤٧٣هـ - ١٩٥٥م.
٦٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير،تحقيق: د/ أحمد الحوفي ،د/ بدوي طبانة ، نهضة مصر د.ت .
٦٦- محاورات مع النثر العربي ، د/ مصطفى ناصف ، عالم المعرفة(٢١٨) الكويت ١٤١٧هـ- ١٩٧٧م.
٦٧- المدخل إلى علم اللغة ،د/ رمضان عبد التواب ،مكتبة الخانجي ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٦٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، لأبي بكر السيوطي ، تحقيق : أحمد محمد جاد المولى وآخرين ،ط٣ دار التراث د.ت.
٦٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار الكتب العلمية - بيروت .د.ت.
٧٠- مشكل إعراب القرآن ،لمكي القيسي ، تحقيق : حاتم صالح الضامن ، بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٧١- معاني القرآن ، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار ، دار الكتب ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
٧٢- معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم ، د/ إسماعيل عمايرة ، د/ عبد الحميد مصطفى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٧٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ، مؤسسة جمال للنشر ، بيروت د.ت.
٧٤- مفاهيم نقدية، رينيه ويليك ، ترجمة : د/ محمد عصفور ، عالم المعرفة(١١٠) الكويت ١٩٨٧م.
٧٥- مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب السكاكي ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
٧٦- المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، دار المعرفة - بيروت د.ت .
٧٧- مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس ، دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٧٨- المقدمة ، لعبد الرحمن بن خلدون ، ط دار الشعب د.ت .
٧٩- من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي ، نهضة مصر د.ت .
٨٠- من قضايا السجع ، د/ محمد يونس عبد العال ، مقال بمجلة الدارة السعودية عدد :٢، ربيع الأول ١٤١١هـ.
٨١- موسيقى الشعر ،د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو ١٩٨٨م.
٨٢-الموشح ، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، نهضة مصر د.ت .
٨٣- نظرية الأدب ، رينيه ويليك وأوستن وارين ، ترجمة :محيي الدين صبحي بيروت د.ت .
٨٤- النكت في إعجاز القرآن ، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ، تحقيق :د/ محمد خلف الله أحمد و د/ محمد زغلول سلام ، ط٤ دار المعارف ١٩٩١م .
٨٥- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي ، تحقيق : د/ إبراهيم السامرائي ، د/ محمد بركات أبو علي ، دار الفكر، عمان - الأردن ١٩٨٥م.

سيرة ذاتية للباحث

د/ السيد علي محمد خضر - أستاذ العلوم اللغوية المشارك بكلية التربية جامعة المنصورة .

الجوائز العلمية : حصل الباحث على الجوائز الآتية :

١- حصل على الجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في مسابقة الشعراوي القرآنية لعام ١٤٢٠هـ ، وذلك عن كتاب" الفواصل القرآنية – دراسة بلاغية " .

٢- حصل على جائزة مسابقة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي (وقف المستشار شوقي الفنجري) عن كتاب " اللغة العربية – مشكلاتها وسبل النهوض بها" ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .

٣- حصل على جائزة مسابقة موقع " لها أون لاين" "LAHAONLINE" التابع لمؤسسة الوقف الإسلامي بالمملكة العربية السعودية عن بحثه " التمييز ضد المرأة " رؤية شرعية ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م . مخطوط) .

٤- حصل على جائزة مسابقة نبي الرحمة (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م) من رابطة العالم الإسلامي عن كتاب الحوار في السيرة النبوية – مخطوط) .

صدر للباحث (الأعمال المنشورة) :أولاً : الدراسات اللغوية : ١- القرآن والترادف اللغوي ١٩٩٠ م ، ٢- أشعار الصحيحين ، البخاري ومسلم ١٩٩٤م. ٣- التكرار الإيقاعي في اللغة العربية ١٩٩٨. ٤- إعراب ثلاثين حديثاً من جوامع الكلم النبوي ١٩٩٨. ٥- طرائف ونوادر من سير اللغويين والنحاة ، ١٩٩٨. ٦-الفواصل القرآنية – دراسة بلاغية ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م. ٧-التركيب النعتي في العربية – دراسة في القرآن والشعر، ٢٠٠٠م . ٨- من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم ، دراسة في ظاهرة الترادف اللفظي ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م .٩- مستويات التحليل النحوي للعربية ٢٠٠٣م. ١٠- منهج السيوطي في التأليف النحوي بين التقليد والتجديد ٢٠٠٣ م. ١١- اللغة العربية – مشكلاتها وسبل النهوض بها – ٢٠٠٣ م. ١٢- التكرار الأسلوبي في اللغة العربية ٢٠٠٣ م .١٣-البنية النحوية للحوار ٢٠٠٤ م. ١٤-النحو بين القاعدة والنص ٢٠٠٥م. ١٤- التعريب أم التعليم بغير العربية ؟ ندوة اللغات في عصر العولمة – جامعة الملك خالد – أبها ٢٠٠٥م. ١٥-الفهم الجمالي للتركيب اللغوي ، الرياض ٢٠٠٧ م .١٦-التراكيب النحوية لعناوين الأخبار في بعض الصحف السعودية المعاصرة – مجلة الدراسات اللغوية – مركز الملك فيصل – الرياض ٢٠٠٨ م .١٧-حركة الضمائر في قصيدة (رسالة في ليلة التنفيذ) دراسة نصية ٢٠٠٩م .

ثانياً : في الإسلاميات : ١٨- من سمات الجمال في القرآن الكريم ١٩٩٣م.١٩- قصة مؤمن آل فرعون ، دراسة تاريخية حضارية ١٩٩٧م. ٢٠- رسالة في فضائل الصبر على المرض ١٩٩٧م.٢١- رسالة في المنجيات من عذاب القبر وفتنته ٢٠٠٠م.٢٢- وصف جمال النبي ﷺ مع مقدمة في علم الجمال الإسلامي ٢٠٠٠م. ٢٣- مواقف خالدة في حياة أبطال الإسلام ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م .٢٤- رسالة " النصح الثمين لمن بلغ الأربعين " ٢٠٠٣م .

المؤتمرات العلمية : شارك الباحث ببحوث علمية محكمة في أربعة مؤتمرات .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفهرست

الموضوع الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية ٣
مقدمة الطبعة الأولى ٤
التمهيد : في معالم الدراسة البلاغية والدلالية ٩

***

الفصـــل الأول
الظواهر الإيقاعية في نهايات الجمل العربية (١٥-٧٥)
أولاً : دراسة في الإيقاع اللفظي ١٦
ثانياً : السجع ٣٠
ثالثاً : القافية ٣٩
رابعاً : ظاهرة الإتباع ٤٦
خامساً : الفواصل القرآنية ٤٩
سادساً : بين مصطلحي السجع والفاصلة ٦١

***

الفصل الثاني
الفواصل القرآنية في ضوء مباحث البلاغة العربية(٧٦- ١٦٤)
أولاً : المباحث الصوتية للفواصل ٧٧
١- الحروف المستعملة في الفواصل ٧٧
٢- الحروف المتقاربة المخارج في الفواصل ٨٣
٣- الوقف على الفواصل ٨٤
٤- حذف حرف لأجل الفاصلة ٨٦
٥- زيادة حرف لأجل الفاصلة ٨٨
٦- لزوم ما لا يلزم ٨٨
٧- تغيير بنية الكلمة لأجل الإيقاع ٩٠
ثانياً : التقديم والتأخير في الفواصل القرآنية ٩٤
١- تقديم المفعول على الفاعل ٩٨
٢- تقديم الجار والمجرور ١٠٠
٣- تقديم الضمير على ما يفسره ١٠٢

٤- تأخير المنادى في بعض المواضع للفاصلة ١٠٣
٥- تقديم خبر كان على اسمها ١٠٤
٦- تأخير المعطوف عن موضعه ١٠٥
٧- تأخير المفعول عن موضعه ١٠٥
٨- تقديم الفاضل على الأفضل ١٠٦
٩- تقديم المتأخر زماناً على المتقدم ١٠٧
١٠- تقديم السماء على الأرض ١٠٧
١١- تأخير الصفة وفصلها عن الموصوف ١٠٨
ثالثاً : الإحلال في الفواصل ١١٠
١- إحلال صيغة فاعل محل صيغة مفعول ١١١
٢- إحلال صيغة مفعول محل فاعل ١١٢
٣- إحلال المفرد محل المثنى ١١٣
٤- إحلال المثنى محل المفرد ١١٤
٥- إحلال الجمع محل المثنى ١١٥
٦- إحلال صيغة العاقل محل صيغة لغير العاقل ١١٥
٧- إحلال المفرد محل الجمع ١١٦
٨- إحلال المؤنث محل المذكر ١١٧
٩- إحلال المذكر محل المؤنث ١١٨
١٠- استعمال حرف جر مكان آخر ١١٨
رابعاً : الاستغناء ببعض الصيغ والتراكيب عن غيرها للفاصلة ١٢٠
١- إيثار بعض صيغ المبالغة على بعض ١٢٠
٢- إيثار اسم التفضيل على صيغة المبالغة ١٢٣
٣- إيثار جمع تكسير على آخر ١٢٤
٤- إيثار اسم الفاعل على الاسم الموصول ١٢٤
٥- إيثار مصدر مؤكد غير مصدر الفعل الموجود بالجملة ١٢٥
٦- إيثار صيغة المضارع على الماضي ١٢٥
٧- الاستغناء بصفة الشيء عن اسمه ١٢٥
٨- إيثار أغرب اللفظين لغرابة المعنى ١٢٦
٩- إيثار المظهر على المضمر ١٢٧

خامساً : حذف بعض الألفاظ في الفواصل ١٢٩
١ - حذف المفعول به ١٢٩
٢ - حذف متعلق أفعل التفضيل ١٣٢
٣ - حذف تمييز العدد ١٣٣
سادساً : الإعراب والفاصلة ١٣٤
١ - التوطئة للفاصلة بما يمنع الفعل من النصب ١٣٥
٢ - التوطئة للفاصلة بما يعمل الرفع أو النصب ١٣٧
٣ - الفاصلة بين الاسمية والفعلية ١٣٨
٤ - التكرار اللفظي في الفاصلة وإعرابه ١٣٩
سابعاً : ائتلاف الفاصلة مع مضمون آيتها ١٤٢
ثامناً : الفواصل وتصوير اللوحة القرآنية ١٥٢

***

الفصل الثالث

دراسة تطبيقية في فواصل سورتي البقرة والإسراء(١٦٥-١٨٨)

١ - سورة البقرة ١٦٥
أولاً : الدراسة الصوتية ١٦٥
ثانياً : التسجيع في فواصل سورة البقرة ١٦٦
ثالثاً : التقديم والتأخير في فواصل سورة البقرة ١٧٢
رابعاً الحذف في فواصل سورة البقرة ١٧٥
خامساً : إيثار التعبير بالمضارع على التعبير بالماضي ١٧٧
سادساً : مناسبة الفاصلة لمضمون الآية............................ ١٧٧
٢ - فواصل سورة الإسراء ١٨٢
أولاً : الدراسة الصوتية ١٨٣
ثانيا : التسجيع في سورة الإسراء.................................. ١٨٣
ثالثاً : التقديم والتأخير.. ١٨٦
رابعاً : مناسبة الفاصلة لمضمون الآية ١٨٧
الخاتمة ونتائج الدراسة ١٨٩
المصادر والمراجع ١٩٢